

عباس محمود العقاد

عبقرية الإمام

obeykandi.com

تقديم

في كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبي طالب رضوان الله عليه

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء ، وتثير فيه أقوى ما يشيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل

في سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار . لأنه الشهيد أبو الشهداء . يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحداً بعد واحد شيوخاً جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذي لا يرحم ، أو فتياناً عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة بل يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جياع ظماء . . . وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبي العلاء لا يُظن به التشيع بل ظننت بإسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشهيد بن علي ونجمه شاهدات
فهما في أواخر الليل فجرا ن ، وفي أولياته شفقان
وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها في سير الشهداء
غاية ، وكثيراً ما تتعطش إليها سرائر الأمم في قصص القداء التي عمرت
بها توارىخ الأديان

وفي سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالخيال حيث تخلق الشاعرية
الإنسانية في الأجواء أو تغرض في الأغوار . فهو الشجاع الذي نزع
به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل ، واشترك
في تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب ألم يحارب المردة
في قلاوتها ؟ ألم يخلق له الرواة أنداداً من المناجزين والمبارزين لم يخلقهم
الله ؟ ألم يستصغر عليه المحبون الغالون في الحب أن يصرع من عرفنا من
خصومه فأنشأوا له من الخصوم المغلوبين من لم نعرفهم ولم يعرفوه ؟ ألم
يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير
وهو هو أصدق الأبطال في أصدق مجال !

وتلتقى سيرته — عليه رضوان الله — بالفكر كما تلتقى بالخيال
والعاطفة . لأنه صاحب آراء في التصوف والشرية والأخلاق سبقت
جميع الآراء في الثقافة الإسلامية ، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن
يعد من أصحاب المذاهب الحكمية بين حكماء العصور ، ولأنه أوتي من
الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين ،

فهو الذكاء الذى تحسه فى الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه فى نتيجة العمل
ومجرى الأمور

وللذوق الأدبى — أو الذوق الفنى — ملتقى بسيرته كملتقى الفكر
والخيال والعاطفة . لأنه رضوان الله عليه كان أديباً بليغاً له نهج من
الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع بحمده
المتذوقون ، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون . فهو الحكيم الأديب ،
والخطيب المبين ، والمنشئ الذى يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت
آيات النثرين والناظمين

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل
والتفكير ، وتذوق الحسن الجميل من التعبير

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط فى زمن من الأزمان ، وهى
ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان ، أو ناحية الخصومة الناشئة أبداً
على رأى من الآراء ، أو حق من الحقوق ، أو وطن من الأوطان

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض
حين ، ولكن الذى لم يفتر قط ولا نخاله يفتر فى حين من الأحيان
خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين

وإن هاهنا للمجال الرغيب والملتقى القريب فى سيرة هذا الإمام
الأوحد التى لا تشبهها سيرة فى هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو
رضوان الله عليه قد قال فى ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي » . . . أو حين قال : « يهلك فيّ رجلان : محب مفرط بما ليس فيّ ومبغض يحمله شغائي على أن يبهتنى »

وصدق الإمام الكريم في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه .
فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين : هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه . . ! ويستتيبهم فيصرون على الكفر أى إصرار ، ويأمر باحراقهم فيقولون وهم يساقون إلى الحفيرة الموقدة : إنه الله وإنه هو الذى يعذب بالنار !

وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه ! ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفهم في العقيدة ووافقهم على السباب

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسع في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول أناس إله ! ويقول أناس كافر مطرود من رحمة الله

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الإمام في أكثر من طريق : وتلك هى ناحية الشكوى والتمرد ، أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح

فقد أصبح إسم على علما يلتف به كل مغضوب ، وصيحة ينادى بها

كل طالب إنصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة في حياته . وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح ، أو كأنها النفس الذي يستروح إليه كل مكظوم . فمن نازع في رأى ففى اسم على شفاء . لنوازع نفسه ، ومن ثار على ضيم ففى اسم على حافز لثورته ومرضاة لغضبه ، ومن واجه التاريخ العربى بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين على فى وجه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته . وتلك هى المزية التى انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصر فى خلقها التاريخ والمؤرخون

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب فى حذر ما بعده من حذر ، لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ولا ينقصها أو يؤول بها إلى البساطة والوضوح ، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت فى ناحية من النواحي سهل الخلوص إلى مقطع الحق فيها . فالبطل الذى يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذى يلتقى بالفكر والعاطفة ، وإن هذا الأسهل من الذى يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى فى ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح إلى المثل الأعلى أو حرص على الملاحاة أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى ، مزيدا على التخيل والشعور والتفكير

لهذا نعلم غير مترددين في علمنا أن واجبنا في « عبقرية الإمام »
مرسوم الغاية والطريق ، وهو واجب التبسيط . والقصد إلى الخطوة
الوسطى ، وفي علمنا بهذا بعض التيسير ، وإن لم يكن فيه كل التيسير
نرجع « بعبقرية الإمام » إلى الحقيقة الوسطى
نرجع من عشرين طريقاً إلى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحدة
لا تؤدي إليها أقرب أداء . وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل
هذه الطرق إلى تلك البداية المقصودة . فعلى بركة الله !

مختار

المشهور عن عليّ كرم الله وجهه أنه كان أول هاشميّ من أبوين هاشميين . فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملاحمها في كثير من أعلامها المقدمين ، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء ، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

وقيل إن اسمه الذي اختارته له أمه حيدرة باسم أبيها أسد ، والحيدرة هو الأسد . ثم غيره أبوه فسماه عليّاً وبه عرف واشتهر بعد ذلك

وكان عليّ أصغر أبناء أبويه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين

قيل إن عقيلاً كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه ، فلما أصاب القحط قريشاً وأهاب رسول الله عليه السلام بعمية حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه

أمرهم ، فقال : دعوا إلى عقيلاً وخذوا من شئتم . فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرأ وأخذ النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور . فعوضه إشار النبي بالحلب عن إشار أبيه ، ولكنه عرف هذا الإشار في طقوله الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية ، وجاءت هذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباه

وربما صح من أوصاف علي في طقوله أنه كان طقلاً مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يلقى فهمها والتنبه لها على من كان في مثل هذه السن الباكرة . فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباءه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم في شيخوخة الآباء .

ونشأ رضى الله عنه رجلاً مكين البنيان في الشباب والكهولة ، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة إنه كان رضى الله عنه ربة أميل إلى القصر ، آدم — أى أسمى — شديد الأدمة ، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقل العينين في دعج وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ؛ أغيد كأنما عنقه إبريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش

كشاش^(١) السبع الضاري لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً ،
وكان أبحر - أي كبير البطن - يميل إلى السمنة في غير إفراط ،
ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ،
شن الكفين ، يتكفاً في مشيته على نحو يقارب مشية النبي ، ويقدم في
الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوى على شيء .

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة في المكانة
والصلابة والصبر على العوارض والآفات . فرمما رفع الفارس بيده فجلد
به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك
بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا
صرعه ، ولم يبارز أحداً إلا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه
رجال ، ويحمل الباب الكبير يعي بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة
فتتخلع لها قلوب الشجعان

ومن مكانة تركيبه رضي الله عنه أنه كان لا يبالي الحر والبرد ،
ولا يحفل الطواريء الجوية في صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب
الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف ، وسئل في ذلك فقال :
« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى وأنا أرمد العين يوم خيبر
فقلت : يا رسول الله ! إني أرمد العين . فقال : اللهم أذهب عنه الحر
والبرد ، فما وجدت حرّاً ولا برداً منذ يومئذ . . »

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغاً ما بلغت بهما المساواة والإيذاء . فقد كان يرعد للبرد إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه . قال هرون بن عنترة عن أبيه : دخلت على علي بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : والله ما أرزأكم شيئاً ، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء . إنما هي مناعة قوية خصت بها بنيته ، لم يخص بها معظم الناس

وكان إلى قوته البالغة شجاعاً لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة ، فكان لجراته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشئ ، على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعاً في الحديد ينادى جيش المسلمين : من يبارز ؟ فصاح علي : أنا له يابني الله ! . . . قال النبي وبه إشفاق عليه : إنه عمرو . اجلس . ثم عاد عمرو ينادى : ألا رجل يبرز ؟ وجعل يؤنبهم قائلاً : أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ؟ أفلا تبرزون إلى رجلا ؟ فقام علي مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يارسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس . إنه عمرو ، وهو يجيبه : وإن

كان عمرأ . . . حتى أذن له فشى إليه فرحاً بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص . ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟ قال ولم يزد : أنا عليّ ! قال : ابن عبد مناف ؟ قال : ابن أبي طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخي ! من أعمامك من هو أسن ، وإني أكره أن أهريق دمك . فقال له عليّ : لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك . فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار ، واستقبل على الضربة بدرقته ففقدها السيف وأصاب رأسه ، ثم ضربه عليّ على جمل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار ، فما انجلى إلا عن عمرو صريعاً وعليّ يجأ بالتكبير

وكانما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذى لا يؤسى على مصابه ، لأنه أحجى المصائب أن يقبل ، وأقلها معابة ألا يدفع . فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بمد موته :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما دمت فى الأبد
لكن قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد
فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التى يشرف بها من يصيب
بها ومن يصاب

ويزيدها تشريفاً أنها ازدانت بأجل الصفات التى تزين شجاعة الشجعان الأقوياء . فلا يعرف الناس حيلته للشجاعة أجمل من تلك

الصفات التي طبع عليها على غير كلفة ولا مجاهدة رأى . وهي التورع
عن البغى ، والمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء ، وسلامة
الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال

فمن تورعه عن البغى مع قوته البالغة وشجاعته النادرة أنه لم يبدأ
أحداً قط بقتال وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعون
إلى مبارزة . فان دعيت إليها فأجب . فان الداعي إليها باغ والباغى
مصروع »

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له إنهم
خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقال : « لا أقاتلهم حتى
يقاتلوني . وسيفعلون ! »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقبل وقعة صفين وقبل كل وقعة
صغرت أو كبرت ووضح فيها عدااء العدو أو غمض : يدعوهم إلى السلم
وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها
قبل ذلك للسلام

كان يعظ قوماً فبهرت عظمته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح
معجباً إعجاب الكاره الذى لا يملك بغضه ولا إعجابه : قاتله الله كافراً
ما أفقهه ! فوثب أتباعه ليقتلوه . فنهاهم عنه وهو يقول : إنما هو سب
بسب أو عفو عن ذنب

وقد رأينا أنه كان يقول لعمر بن ود : إني لا أكره أن أهرق

دمك . . . ولكنه على هذا لم يرغب في إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين . فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنف وقال إذن تتحدث العرب بفرارى، وناشده : يا عمرو ! إنك كنت تعاهد قولك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداها . قال : أجل ! قال : فاني أدعوك إلى الإسلام أو إلى النزال قال : ولم يا ابن أخي ! فوالله ما أحب أن أقتلك . . . فلم يكن له بدٌّ بعد ذلك من إحدى اثنتين : أن يقتله أو يقتل على يديه

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة : فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كرز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين : من يبارز ؟ فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى : من يبارز ؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه ، ثم نادى رابعة : من يبارز ؟ فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه ، وخاف على أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسمعا الصفوف : يا أيها الناس ! إن الله عز وجل يقول : الشهر

الحرام بالشهر الحرام والحرمت قصاص ، ولو لم تبدأونا ما بدأناكم . . .
ثم رجع إلى مكانه

أما مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته
بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا
على جريح أو يكشفوا سترأ أو يأخذوا مالا . وصلى في وقعة الجمل على
القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير
ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه والمؤلبين عليه
فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه
من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن
سواته اتقاء لضربه . وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة
صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشاً ! . فلما حمل عليهم
وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار
السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات :
أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادى ! فلم يرد عليها شيئاً ، ثم
خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل
أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين ! أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول
ما تسمع ؟ فأنهره وهو يقول : ويحك ؟ إنا أمرنا أن نكف عن النساء
وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟ وإنه لى طريقه
إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما

مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع ، وسار في ركبها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويحفظ بها . قيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمهم بالعمائم وقلدهن السيوف . فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت : هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي . . . فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : إنما نحن نسوة

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان في حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر القتال وتعد لها في النبل والذرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنهى أهله وصحبه أن يمثلوا بقاتله وأن يقتلوا أحداً غيره ، ورثى طلحة الذي خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة ، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شراً عليه من معاوية وجنده ، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين .

وتقترن بالشجاعة — ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها ، وكأنها والشجاعة أشبه

شىء بالنضح للماء أو بالإشعاع للنور . فلا تكون شجاعة القروسية إلا كانت معها تلك الصفة التى تشير إليها ، وهى صفة «الثقة» أو «الاعتزاز» أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما فى مواقف النزال وقد يسميها بعض الناس زهواً وليست هى به ولا هى من معدنه وسمته ، وإن شابهته فى بعض الملامح والألوان

فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه ، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة ، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع .

أما هذا الاعتزاز الذى تشير إليه ، أو هذه الثقة التى تظهر لنا فى صورة الاعتزاز ، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلاً بعمله فى مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس فى إرهاب عدوه وإضعاف عزيمته من يتصدى لحربه . مثله هنا كمثل العروض التى تعتمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والمهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضرباً من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويتيه به فى غير حاجة إلى التيه

ولهذا تسمح الناس للفخر العسكرى من قديم الزمن وعهده ولمحدثوا به وتناقلوه . فسمحوا للفارس — بل لعلمهم أوجبوا عليه — أن يروع خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لنزاله ، وأن يلاقيه وهو ينشد

الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة بغزواته ، وعلموا أنهم — وقد احتاجوا إلى شجاعته — محتاجون كذلك إلى نغمة وفخريته وحاسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه . فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهي أحب القصائد إلى القلوب ومن تأصل هذه العادة في الطبائع أنها تشاهد في جميع الأحياء فطرة وارتجالاً بغير اصطناع ولا تعمد . فلا نرى حياً من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنأه إلا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدمه وإثثار نظره وتنفيس ريشه أو شعره ، ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان فإذا هو الفخر والحماسة وإذا هو عنوان الثقة والإقدام

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهاً لوجه ، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه وكانت هذه الصفة من صفات علي رضي الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدره بفضله ، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : إنك والله ما علمت لتنظر الخيلاء ! . ومر الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنم ، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له وضحك علي يحيمه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ! قال

رسول الله : إنه ليس به زهو . ولتقاتلنه وأنت له ظالم

فليس هو بالزهو المذكور ، ولكنها الشجاعة التي يمتليء بها الشجاع
والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها ، لأن صاحبها لم
يتكلف مداراتها ولم يحس أنه محتاج إلى مداراتها ، ولأنه لا يقصدها
ولا يعتمد إبداءها

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم
تفارقه منذ حبا ودرج وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعتة الطفولة
الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن
إليه المستجير . ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون
بالنبي عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينيه في وجوههم
ويسأل عن النصير ولا نصير . . . لو كان بعلي أن يرتاع في مقام نجدة
أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة
ورفتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان
علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين .
فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب :
أنا نصيرك . . ! فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده
في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم
علي هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة وقد علم ما تأتمر
به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش

وعلى هذا هو الذى تصدى لعمر بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التى حذرهما فرسان العرب من غير تحذير : يقول النبي اجلس . إنه عمرو . فيقول : وإن كان عمراً . . . كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف ، ولا يعرف إلا الشجاعة التى هو ممتلىء بها واثق فيها فى غير كلفة ولا اكتراث

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التى هى كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها

وزادها تمكيناً حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل ، وأنفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأى حين كان يقول : « أسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لا تسألونى فى شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركبها ومحط رحالها »

ومن شواهد ما أنه كان يقول والخارجون عليه يرجونه بالمروق : « ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى . عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين »

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه خصماء طلحة والزبير أنه ترك مشورتها قال : « . . . نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته . وما استن النبي صلى الله عليه

وآله وسلم فاتقديته . فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما ،
ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين ، ولو كان ذلك لم
أرغب عنكما ولا عن غيركما . . . »

وأبدي هذه الخليقة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال
على أن يتألف . بل كان يقول : « شر الإخوان من تكلف له »
ويقول : « إذا احتشم المؤمن أخاه فتمد فارقه » ، فكان الذين ينتظرون
منه الاصطناع والإرضاء يخطئون ما انتظروه ولا سيما إذا هم انتظروه
من أرزاق رعاياه وحقوقهم التي أوثمن إليها . فيحسبون أنها الجفوة البينة
وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك . إنما هي شجاعة الفارس
بلوازمها التي لا تنفصل منها ، وإنما هو امتعاض المغموط المسمى ظناً بمن
حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رياء . فما كان يتكلف إظهار
تلك الخلائق زهواً كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها ، بل كان قصاره
ألا يتكلف الإخفاء ، فإذا التفت قاصداً إلى ما في نفسه فهو لا يقصد
العجب ولا يرضاه ، بل ينهى عنه ويشدد في اجتنابه ، ويوصى من
أحب « إياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها » « واعلم
أن الإعجاب ضد الصواب ، وآفة الأبواب »

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق على عليه السلام أنه كان لا يتكلف
إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه . . .
فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له

طوبته ويقول له : أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك ! » وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة . وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والحجاز على السواء كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها : كان مثلاً يخرج إلى مبارزته حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيبٌ منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناعساً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل اكترائه لكل خضاب ساتراً ما ستر ، أو كاشفاً ما كشف ، من رأى وخليقة ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها ، أو هي قرينة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلعها تفارقها ، ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذى يجترى به الرجل على الضر والبلاء كما يجترى به على تضييع المنفعة والنماء . فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف بها الحق الصراح في سلمه وحربه وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف ، فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء . حتى قال فيه أقرب الناس إليه إنه رجل يعرف من الحرب شجاعته ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان

أبداً عند قوله : « علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك ، وأن تتقى الله في حديث غيرك »

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه . فلم يُعرف أحد من الخلفاء أزهده منه في لذة دنيا أو سبب دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يحتم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم » قال عمر بن العزيز وهو من أسرة أمية التي تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات : « أزهده الناس في الدنيا على بن أبي طالب » . . . وقال سفيان : « إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة . » . وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إشاراً للخصاص التي يسكنها الفقراء ، وربما باع سيفه ليشتري بئمه الكساء والطعام . وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذنتي حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ! كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به »

وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضى الله عنه أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال له : « لله أبوك لولا دعابة فيك » وأنه قال لمن سأله في الاستخلاف : « ما أظن إلا أن يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان . فإن ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على فقيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق »

وأغرق ابن العاص في وصف الدعابة فسمّاها « دعابة شديدة » وطلق يرددها بين أهل الشام ليقدر بها في صلاح الامام للخلافة ، وإنما نقول إن ابن العاص أغرق في هذا الوصف ، وأن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته لأن تاريخ على وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلاً على خلق الدعابة فضلاً عن الدليل على الإفراط فيه . فإن كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه . فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تميز لهم ما تقولوه

وقد كانت للامام صفات ومزايا فكرية تنافى المشهور المتفق عليه من صفات النفسية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهائه في سياسة الرجال

والحق الذى لا مرأى فيه أنه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء ، وأنه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير ، وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق إليه علم فارس أو علم يونان وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب

هنا متفق لا يكتر فيه الخلاف ، ثم يفترق الناس في رأيه رأيين وإن لم يكونوا من الشائئين المتحزبين ، فيقول أناس إنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه . ويقول أناس بل هو الاضطراب والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه في الفطنة والسداد . وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابه من هذا العذر حين قال : « والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس »

أما مقطع الرأى بين الرايين فترجو أن تفصله فى مواضعه من
الفصول التالية مشفوعاً بمناسباته ، ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين
تجملان ما نبسطه فى مواضعه من الكتاب ولا نحسبهما تتسعان لجدال
طويل ، وهما أن أحداً لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى
وأنجم فى فض المشكلات من العمل برأى الإمام ، وأن أحداً لم يثبت
قط أن خصوم الإمام كانوا يصرفون الأمور خيراً من تصريفه لو وضعوا
فى موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التى اصطلحت عليه . وكلتا
الحقيقتين حرية أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل
هنا أو هناك

هذه صفات تنتظم فى نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ،
وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن
الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضى والسخط والقبول والنفور ، وأصدق
الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له فى حياته أجل
صفاته المثلى فلم يختلفوا على شىء منها إلا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت
حواله الشهوات ، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ
منه إلى صميم .

منفکاح شخصیه

« آداب الفروسية » هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير
وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة
وهي : النخوة

وقد كانت النخوة طبعاً في على فطر عليه ، وأدباً من آداب الأسرة
الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودها
كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وإن لم يطبع عليها وينشأ في
حجرها . لأن للغلبة في الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف إلى ما ينجله
ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً ، وتمنعه أن يعمل في
السر ما يزرى به في العلانية

وهكذا كان على رضى الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلغت به
نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال
والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتتم الفرصة ، ولم يساوره الريب قط
في الشرف والحق أنهما قائمان دائماً كأنهما مودعان في طبائع

الأشياء . فإذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم ،
وإن أفادوا كثيراً وباء هو بالخسار .

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه ،
لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ولم يود أن
يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص .

قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل
الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستوياً بساتاً واسعاً
وأخذوا الشريعة — أى مورد الماء — فهي فى أيديهم ... وقد أجمعوا
على أن يمنعونا الماء . ففرعنا إلى أمير المؤمنين فخبّرناه بذلك فدعا
ضعفة ابن صوحان فقال له : انت معاوية وقل له إنا سرنا مسيرنا
هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، وإنك قدمت إلينا
خيلاً ورجلاً فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا
الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك وهذه أخرى قد فعلتموها إذ
حلت بين الناس وبين الماء ، والناس غير منتهين أو يشربوا . فابعث إلى
أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا
وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له ... »

ثم قال راوى الخبر ما فحواه إن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه
أن يحول بين على وبين الموزد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته

إلى المفاوضة في أمر الخلاف ، فأنفذ معاوية مدداً إلى حراس المورد
يحمونه ويصدون من يقترب منه . ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل
فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب على طريق الماء وملكوه
وهنا الفرصة الكبرى لو شاء على أن يهتبلها وأن يغلب أعداءه
بالظلم كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة وقد جاء أصحابه يقولون :
والله لا نسقيهموه . ! فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع
لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم . وصاح بهم . « خذوا من الماء حاجتكم
وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم
بظلمهم وبغيهم »

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة ، فأبى
أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه لأنه نهاهم أن يسلبوا المال
ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال . قالوا : أترأى يحل لنا دماءهم
ويحرم علينا أموالهم ؟ فقال : إنما القوم أمثالكم . من صفح عنا فهو منا
ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر « وسن
لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا
على جريح ولا يكشفوا ستراً ولا يمدوا يداً إلى مال

ومن القرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص
وهو ملقى على الأرض مكشوف السواة لا يبالي أن يدفع عنه الموت
بما حضره من وقاء . فصدف بوجهه عنه آنفاً أن يصرع رجلاً يخاف

الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازلها في مجال صراع . ولو غير
على أتيح له أن يقضى على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء
فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح عليه

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضى الفروسية العزيزة
من جميع آدابها ومآثراتها

فكان يعرف العدو عدواً حيثما رفع السيف لقتاله . ولكنه لا يعادى
امراً ولا رجلاً مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن نضال ولا ميتاً ذهبت حياته
ولو ذهبت في سبيل حربه . بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على
قبره ليبكيه ويرثيه ويصلى عليه

وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب
وليس في دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام

فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين
قال لهم : « إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم
وذكرتم حالهم كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان
سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ،
واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى عن الغي
والعدوان من لهج به »

وربما شذ عن سنته هذه في بعض الأحيان فإذا به لا يشذ عنها إلا

كما يشذ الفرسان حيث تغلبهم بوادر اللسان . فندر بين رجال السيف
من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطلق لسانه بكلمة عوراء يجارى بها
غضبه الذى طبع على إبدائه ولم يطبع على كتمانها

ومن قبيل هذا كلمات قالها على فى ابن العاص وفى معاوية وفى
الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها ديدناً له كما سبوه على
المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرّد عليه الجند وأفشى بين أنصاره
الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه
فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك بن حائك ،
مناقق بن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما فداك
من واحدة منهما مالك ولا حسبك ، وإن امرأاً ولى على قومه السيف
وساق إليهم الختف لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد »

وظفّق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر
بسبه على المنابر حتى وجب رده وإدحاض زعمه . فقال رضى الله عنه
فى بعض خطبه : « عجبا لابن النابغة ! يزعم لأهل الشام أن فى دعابة
وأنى امرؤ تلعباة : أعانس وأمارس^(١) . . . لقد قال باطلا ونطق آثماً .
أما — وشر القول الكذب — إنه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ،
ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الإل^(٢) ، فإذا كان عند الحرب

(١) المعانسه مضاربة الناس مزاحاً ومغازلة النساء (٢) الإل القرابة والرحم

فأى زاجر وأمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها ، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته ! أما والله إنى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت ، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة . إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتیه أتیّة و یرضخ له على ترك الدين رضىخة ... (١) وكذلك كان يحبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح فى دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان فى روية فكره ولا فى بوارد لسانه ، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل شىء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحاً مشهوراً وسبيلاً إلى القول الباطل شىء آخر

ولقد كانت للأمام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجرى فى مجراها حيناً وتبدو غريبة عنها حيناً آخر فى عرف بعض الناقدين ، ومنها التفقه والنزوع إلى « التصوف » واستنباط حقائق الأشياء

فهذه فى عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ما قدروه . ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة ؟ أليس هو فى معدنه جهاداً فى الحق أو جهاداً فى الله ؟ أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد ؟ ألم نعهد فى كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون ، أو يتدينون ويتنطسون لأنهم مجاهدون ؟

(١) الأبية العطية ومثلها الرضىخة مع قلة

فالإمام علي رضي الله عنه فارس لا يخرج من الفروسية فقه الدين بل هو أخرى أن يسلكه فيها ، ولا يخرج من الفروسية بعض المقال في خصومه بل هي بوادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية بشتى عوارضها هي المفتاح الذي يدار في كل باب من أبواب هذه النفس فإذا هو منكشف للناظر عما يليه

oboi-kandi.com

وہابی

ولد عليّ في داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ،
فكأنما كان ميلاده ثمة إيذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها .
وكاد عليّ أن يولد مسلماً

بل قد وُلد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة
والروح . لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام
فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية ، وعرف
العبادة في صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه
وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابةً مضاعفةً ومحبةً أوثق
من محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذي نشأ في
بيته ونعم بمطفه وبره . وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه على
آبائهم وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه
به بيت ، ويجمعه به جميل معروف : جميل أبي طالب يؤديه محمد
وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوى إليه

واختلفوا في سنة حين إسلامه من السابعة إلى السادسة عشرة ،

ولعله أسلم في نحو العاشرة لأنه كان يناهزها عند إعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبي عليه السلام يتعبد في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع علياً أن يألف تلك العبادة في طفولته الباكرة فإذا هو نقر منها وأعرض عنها لغير سبب في تلك الطفولة الباكرة فالمعجيب أنه يعود إلى ألفتها والرضى بها بعد أن بلغ السن التي يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد

ولولا ألفة علي لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى إليه ، فقد أصر كثير من أقرباء النبي على الشرك زمناً طويلاً ، منهم عقيل أخوه وأحب إخوته إلى أبيه . فخارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحبه . بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين

على أن الألفة بين ابني أعمام الكريمين قد أوشكت أن تكون عائناً للإسلام علي في طفولته الباكرة . لأن النبي عليه السلام أبي أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون بره بعمه وبابن عمه سبيلاً إلى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفى سرّاً عن أبيه كأنه يخدعه بإخفائه ولو في سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائناً عسيراً أعسر ما فيه أنه عائق اختيار يهون معه الاضطرار ، أو عائق حيرة

تقل فيها حيلة الكريم . حتى شاع أمر الدعوة الحمديّة وعلم بها أبو طالب
ونصر ابن أخيه وأمر علياً بمتابعة ابن عمه ونصره . فأقبل الغلام البر
بأبيه وبكافله إقبالاً لا تلجلج فيه على الدين الجديد

وملاً الدين الجديد قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه
شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى عقائده . فبحق ما يقال إن علياً
كان المسلم الخالص على سجيته المثلى ، وأن الدين الجديد لم يعرف قط
أصدق إسلاماً منه ولا أعمق نفاذاً فيه

كان المسلم حق المسلم في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ،
حتى ليصح أن يقال إنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلا ما يزيده
التعليم على الطباع

كان عابداً يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمراً مكتوباً
عليه . كان يرى في كهولته وكأنما جبهته ثقبة بعير من إدمان السجود
وكان على محبة في الإسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية ، فكلموا
زينوا له الهوادة أبي « أن يداهن في دينه ويعطى الدنية في أمره »
وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن
يرضاه دون من يقلاه ، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن
بهته وآذاه

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح — قاضيه —

ينحاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : إنها درعى ولم أبع ولم
أهب . فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟
قال النصراني : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب
فالتفت شريح إلى عليّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك
عليّ وقال : أصاب شريح ! مالى بينة ! فقضى بالدرع للنصراني فأخذها
ومشى و «أمير المؤمنين» ينظر إليه ... إلا أن النصراني لم يخط خطوات
حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء ... أمير المؤمنين
يديننى إلى قاضيه يقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله ! الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين . اتبعت الجيش
وأنت منطلق إلى صفين نخرجت من بعرك الأورق . فقال : أما إذ
أسأمت فهى لك : وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق
الجند بلاء فى قتال الخوارج يوم النهروان

وأحسن الإسلام علماً وفقهاً كما أحسنه عبادة وعملاً . فكانت فتاواه
مرجعاً للخلفاء والصحابة فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة
من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة
بين أفضل الآراء

إلا أن المزية التى امتاز بها عليّ بين فقهاء الإسلام فى عصره أنه

جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام ، فإذا عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز عليّ بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه لينغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام ويصح أن يقال إن علياً رضى الله عنه أبو علم الكلام في الإسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ علي رضى الله عنه ، وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن عليّ بن أبي الحسن عليّ بن أبي الحسن عليّ بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي عليّ الجبائي وأبو عليّ الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء . أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد ومحمد بن جعفر بن محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهي الأمر إلى عليّ رضى الله عنه . وقد قرأ مالك ابن أنس على ربيعة الرأي وقرأ ربيعة على عكرمة وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقرأ عبد الله بن عباس على عليّ رضى الله عنه . وقيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

قال ابن أبي الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال

التصوف . وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون . وقد صرح بذلك الشبلى والجنيد وسرى وأبو زيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم ، ويكفيك دلالة على ذلك الخرقه التي هي شعارهم إلى اليوم وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام .. »



وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات التي تنسب إليه ويصح أن تحسب أصلاً « للعلم الإلهي » أو لأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك في نسبة بعض هذه الكلمات إلى علي رضي الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بزمان طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده . ولكن شيئاً على هذا النهج لا بد أن يكون قد صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي تواترت به الأقوال وأجمله ابن أبي الحديد فيما تقدم

ولنا أن نقول إنه كان رضي الله عنه يتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصاً في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه . فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر فيها ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب إنما هو الدرس

القرآن الذى وعاه من أمر الكتاب بالنظر فى المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطيور والأجنة فى الأرحام . فهو تلخيصه جل وعلا فى قوله عن الخفافيش : « من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش التى يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدى به فى مذهبها .. فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً ، والنهار سكناً وقراراً ، وجعل لها أجنحة من لحمها تخرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدها لاصق بها لاجئ إليها ، يقع إذا وقعت ، ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تستد أركانها ، ويحمله للهوى جناحه ، ويعرف مذهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان البارى لكل شيء على غير مثال خلاف غيره »

ومثله قوله عن الطاووس : « ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذى أقامه فى أحكم تعديل ونضد ألوانه فى أحسن تنضيد ، بجناح أشرح قصبه وذنب أطال سحبه ، إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه ، وسما به مضلا على رأسه ... وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعا ، فينحت من قصبه المنحنيات أوراق الأغصان ، ثم يتلاصق ثانياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه ، لا يخالف سالف ألوانه ، ولا يقع لون فى غير مكانه .. »

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو من الانحاء في عصر الإمام علي رضي الله عنه ، لأنه كان عهداً نبئت فيه أصول الفرق الإسلامية جميعاً من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب... فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة في الاجتهاد والنظر وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه ، وتعبيراً صادقاً لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التي قدمناها وإن لم تكن هي إياها بالنص والتفصيل .

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الإمام علي سجيته مؤثراً للاجتهاد ما استطاعه ، معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور ، وأبى أن ياتم بعملهم فيما يراه وما لا يراه ، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال : « .. اعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إلى من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك ، والصالحون من أهل بيتك ، فإنهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر... فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم ، لا بتورط الشبهات ، وعُلق الخصومات ، وابتدى قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بالهلك ، والرغبة إليه في توفيقك ، وترك كل شائبة أولجتك في شبهة أو أسلمتك إلى ضلالة ، فإن أيقنت

أن قد صفا قلبك فحشع ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان همك في ذلك هما واحداً ، فانظر فيما فسر لك . . . »

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام على كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه . فإنما هو إسلام المسلم « المطبوع » الذى يتكرر دينه لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته وارتجال مزاجه ، وإنما هو إسلام الحكيم المجتهد الذى يرجع فى الحكمة والاجتهاد إلى رياضة النفس على سنة التساك وتمحيص الفكر على سنة العلماء ، وإنما هو إسلام الرجل الذى أتيح له أن يتعلمد لربه ويتربى فى حجر نبيه ويصبح إماماً للمقتدين من بعده .

oboi-kandi.com

محضر

كانت الظاهرة الكبرى في عصر على ظاهرة اجتماعية خاصة به دون
عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية
عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقت في حروبها
فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية
وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه إنشاؤها

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الاسلامي
بعد نشأة الدولة الجديدة ، فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة
المجربة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولاهها بعض
الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها

أما عصر على فكان عصراً عجباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه ، أو
هو لم يكن عجباً لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجرى عليه .
فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب ، لأنه كان بناء
جديداً في سبيل التمام ، ولم يكن بناء متداعياً فكله هدم واندثار ،
ولا بناء قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار

إلا أن العجيب فيه حقا أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضى عن النظام الاجتماعى والرغبة فى بقاءه وتدعيمه ، وفى الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعى والتحفز لتقويضه وتحويله

أحدهما وهو قسم الرضى عن النظام الاجتماعى كان قسم معاوية ابن أبى سفيان فى الشام وما جاورها

والآخر وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعى — كان قسم على ابن أبى طالب فى الجزيرة العربية بجملة أنحائها

كانت الشام بمعنى من المعانى أرضاً أموية فى عهد الجاهلية . فلجأ إليها أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد إليها أبنائه متجرين أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبى سفيان أن يتولى الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبى بكر الصديق ، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقبلاً على إمارتها بضع عشرة سنة إلى مبايعة على بالخلافة بعد مقتل عثمان . فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممد لتأسيس السلطان الأموى الذى لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ توليها عاملاً على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له فى حكمها . فلم يتوان فى استرضاء رجل

ينفعه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأنباغ والأجناد . بل كان يرضى كل من وسعه إرضاءه ، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع إليه

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس إلى خصومه وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه . ومنهم عقيل أخو علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن زمعة ، وعمرو بن العاص وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوى الأخطار ،

أراد عقيل من أخيه مالاً مجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق ، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « إن أخى خير لى فى دينى ، ومعاوية خير لى فى دنياى » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن على والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء

ولقد همم إرضاء السواد والعامّة كما همم إرضاء الشرفاء وذوى الأخطار ، « وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتنابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق فى حال منصرفهم عن صفين ، فتعلق به رجل من دمشق فقال

هذه ناقتي أخذت منى بصفين . فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقيّ خمسين رجلاً بينةً يشهدون أنها ناقته . . . فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير إليه . فقال الكوفى أصلحك الله إنه جل وليس بناقة ! فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ودس إلى الكوفى بعد تفرقهم

فأحضره وسأله عن ثمن بيعه فدفع إليه ضعفه وبره وأحسن إليه : وقال له : أبلغ علياً أنى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجل ! » ولقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها . . . » (١)

فإن كان فى هذه القصص بعض المبالغة فهى مبالغة الفكاهة الموكلة بتكبير الملامح ليرأها من غفل عنها ، وليست مبالغة الخلق والافتراء وما هى إلا سنوات على هذه الوتيرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعى الجديد ، راغب فى تدعيمه ووفائته من نذر الخطر والزوال وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى اتقاء أسباب التمرد ، والإخلال بالنظام كما نسميه فى هذه الأيام

فما سمعت قط صيحة فتنة إلا بادر إليها بما يسكتها ويردها إلى طلب الاستقرار والدوام . فمن أجدى معه المال أسكته بإغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجد والإخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على إقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه فى المصلحة ، ولا تعييه

حقن بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء

فارتفعت عليهم صيحة أبي ذر الغفاري بالفسير ، وطفق يطالب الأغنياء بالانفاق في سبيل الله ، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره : « و بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » .

فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل إلى أبي ذر ألف دينار يسكته بها إن كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء ! فما طلع النهار حتى كانت الدنانير في أيدي المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية الأمين رسوله الذي حمل إليه الدنانير يقول له : « أنقذ جسدي من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك فأخطأت بك . فقال له : يا بني ! قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار . ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجتمعها » فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغني عن القسوة . وكتب إلى الخليفة أن أبا ذر أعزل به فلا طاقة له بالصبر عليه ، فأتاه الإذن بنفي أبي ذر من الشام إلى المدينة ، ثم ضاقت به المدينة أيضاً فنفي منها إلى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء

وصنع بعبد الله بن سبأ — صاحب القول برجعة النبي إلى الدنيا ووصاية علي على الخلافة — مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه . فلما يئس منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه

والتفت إلى من سماهم أهل الفتنة من طلاب الإصلاح والتبديل فكتب في أمرهم إلى الخليفة يقول : « إنه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان . أضجرهم العدل ! لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة . إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم . . » ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحاً منهم بالنفي والإقصاء ، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح !

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضى والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح إلى التغيير ، حتى تميزت له الشام عند مبايعة علي وفيها أعظم ما يتأني في مثل ذلك العهد من دواعي السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأني فيه من شواجر الفتنة والعصيان .

أما علي فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الإسلامية أيما انعكاس . فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضى والاستدامة ، وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالإخلال بالنظام .

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل

الكوفة بما يرضى هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام في الحجاز وأوى إلى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار ! »

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون إليهم نظرتهم إلى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهي حالة كان أحجى بالولاة أن يخفوها ويتلطفوا في إصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من إصلاح وتبديل . ولكنهم على تقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بمحدثها حتى قال سعيد بن العاص وإلى الكوفة : إنما السواد بستان لقريش !

وظهر هذا السخط من أثره قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين على وأنصاره . فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين ! أتتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل . . . » إلى أن قال يشير إلى خلافة أبي بكر : « ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة . ثم مات واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا في ذلك . فرضينا وسلمنا ، فلما توفي جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً من غير مشورة منا . فما الذي نقيم عليه فنقاتله ؟ .. »

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله .

فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة ! ولعل النافذين بهذا الغيظ كانوا يشوبون إلى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون إليه فيحسن الإصغاء إلى شكواهم والاعتراف لهم بالحق في دعواهم . ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم إلى الصمت راغبين . فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه . ثم وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين

وكان العبيد والموالي والأعراب المحرومون حائقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإنصاف . ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالي والأعراب المحرومين . فلما طُلب على بالاقصاص منهم لمقتل عثمان قال : « . . كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا يملكونهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا . فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون ؟ » وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « أيها الناس ! إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس . . . والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم . . »

وكان مع عليّ جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشرعة،
وهم خلق كثير يعدون بالآلاف ويتفرقون في الحواضر والبادي،
ولا يزالون كأنبيا بني إسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف
المترفين، منكرين لكل خلاف ولو يسير في إقامة أحكام الدين. لا يرضون
عن الدنيا ولا عمن رضى بها من طلابها، ولا يستمعون إلى أمر إلا أن
يكون في رأيهم وثقاً لهم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة كما
يعتقدونها. وطالما وقفوا بين علي وبين القتال لأنهم لا يستجيزونه،
أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يحلون القرآن عن قبوله. فإذا كان أجناد
معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين
الجل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلا ما أجازوه
واستوجبوه. لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام
 والمعروف والمنكر. فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسألون
في جماعة. وهم أقرب الناس في ذلك العهد إلى الجهر بالذير والنداء
بالتبديل والتغيير، والإصغاء إلى وحى الضمير قبل دعاء الأمير

واجتمع مع علي في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع
إليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها، فمنهم
من كان يقول لعليّ: نبايعك على أنا شركاؤك، ومنهم من كان يتعلل
بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله. ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح

محارب علياً باسم عثمان ، تمحلاً لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها ، ثم ينصدع شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم . وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلاً : « . . . احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمعت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم . فإياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله . . . »

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب ، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن ابن عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت . . . حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يآلم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذري^(١) كما يآلم أحدكم إذا نام على حسك السعدان . . . »

روى المسعودي أنه « في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف

درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة ألف دينار وخلف
إبلًا وخيلًا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين
ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق
ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على
مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف
من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً ، وخلف
زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف
من الأموال والضياع . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضاً بمصر
والكوفة والاسكندرية ، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره
بالمدينة وبنها بالجص والآجر والساج ، وبنى سعد بن أبي وقاص داره
بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ،
وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها محصنة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى
ابن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم

هؤلاء أيضاً أصبحوا في حصة عليّ من الدولة الإسلامية عنصراً من
أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ،
خلافاً لأمثالهم ونظرائهم في معسكر معاوية

فالذي يغلب على أصحاب الثروات في كل مجتمع أنهم أنصار الحالة
القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسي أو الاجتماعي على التخصيص ،
ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المهود في مجتمع عليّ فأصبحوا قادة

السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو في سرائر القلوب كما حيل بينهم وبين الظهور في الثورة بفعل محسوس . لأنهم عرفوا علياً من قبل ومن بعد فعملوا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد

عرفوا مذهبهم في حساب الولاية ومذهبهم في حساب الخلافة . فلما كان والياً لليمن أبي علي بعض الصحابة أن يركبوا إبل الصدقة وقال لهم : إنما لكم منها سهم كما للمسلمين . ثم لام العامل الذي أذن لهم أن يركبوها في غيبتها وهو منصرف إلى الحج . وشاعت هذه القصة لأن أناساً شكوه إلى رسول الله عليه السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال : « لقد علمت أنه جيش في سبيل الله »

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب علي عليه ، لأنه أباح العمال والولاة ما ليس بمباح في رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابي من إخوانه جمع مالاً واستهوته فتنة البذخ والثراء

وليس مذهبهم والياً ولا مذهبهم خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه

ولم يكن في وسع علي أن يفض عنهم نظره ولو شاء ذلك ، وهو لا يشاؤه ولا يحمله لنفسه وقد أنكره على غيره . لأنه إذا غض نظره لم يستطع أن يفض الأنظار المفتوحة التي تارت بعثمان وبايعت علياً بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ولا دعاة الدين راضون مطيعون ،
ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم إلا من هو قلق متوفر
لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار

وكل أولئك كانوا في حصة عليّ من الدولة الإسلامية ، ولم يكن
لعاوية في حصته شجرة فتنة من هذه الشواجر ، بل كان له في موضع
كل واحدة منها دعاة تمكين وتأيد

وإن هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفي غنى عن علة أخرى من
علل الفساد والشقاق تضاف إليها
ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت على حصة
عليّ من الدولة الإسلامية . فقد أضيفت إليها علة أخرى ، بل أضيفت
إليها أكبر العلل التي تبلى بها دولة أو حكومة . وهي اعتمادها
في مواردها على غيرها

فكانت موارد الشام في الشام نفسها من خراج أو أنفال أو تجارة .
أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وإن دخلت في طاعته وجنحت
إلى القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسودان من حصة عليّ ، ولكنه
لم ينتفع بمصر كثيراً لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفد بالسودان كثيراً
لتعاقب الفتن والغارات عليها . وحسبك من هذا داعية قلق وباعث
مخافة ومبطل أمان وطمأنينة

وينبغي أن نذكر أن الحيلة في هذا التقسيم قليلة ، وأن الحوادث
هى التى اختارت لكل حصّة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها
وأقربهم إلى ولاية أمرها و « كما تكونوا يول عليكم » . . . ولا محل
فى هذه القاعدة لحيلة أو اختيار

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقة من معاوية ، ولم يكن
أحد أشبه من على " بقيادة الشكوى التى تطمح بأصحابها إلى التغيير .

إن شكّا أناس غلبة قريش فعلى " كان يشكو منها ويظن الظنّون
بمقدّها عليه ونكرانها لحقه ، ويقول فى كتاب من كتبه إلى أخيه :
« . . . ودع عنك قريشاً وتركاضهم فى الضلال وتجوّاهم فى الشقاق .
فإن قريشاً قد أجمعت على حرب أخيك إجماعها على حرب رسول الله
صلّى الله عليه وسلم قبل اليوم . . . »

وإن جاءت صيحة الإصلاح والتغيير من طريق الدين على مذهب
الحفاظ والقراء والنسك فعلى " كان إمام أهل العلم والقراءة ، وأحق
من يتكلم بتفقيه أو تفسير

وإن جاءت من ضم الفقراء فعلى " فقير ، أو من تهافت الولاة على
المال فعلى " يبغض هذا التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه
لا عن قلة فى وسائله إليه

فما شكّا شكاً قط إلا وعلى " شريك له فى شكواه . وكيف ينجو
رجل كهذا من قيادة الدولة التى قامت على التبرم بالحال والطموح

إلى التغيير ؟ وأى حيلة له إلى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟
كان على نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى .
وكانا لأجل ذلك في موضع رشحتهما له الحوادث قسراً قبل أن
يُرشحا له بإرادة مريد

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما في الرأي
والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبداً ، وما لم نذكر أبداً أن أحدهما
كان يعمل والحوادث حرب عليه ، وأن الآخر كان يعمل والحوادث
عدة في يديه



بويح لعلّ بالخلافة بعد حادثة من أجمع الحوادث الدامية في تاريخ الإسلام ، وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة بعد أن حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام وأجمع ما كان في هذه الحادثة أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه ، لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه . فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء ، وإذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين . فمن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أولعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هي في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضي في عهد خليفة

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعية ،

لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وإن ظهرت عواقبها طارئاً
وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغير بعد السنوات الأولى ،
ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ،
وهما إيمان الخليفة في الشيخوخة ، واستمرار الأعوان لما نعموا به من
لين الخليفة ولين الرغد والمتاع

ولقد كتبت الأسفار المطولات في إحصاء المآخذ على عثمان رضى الله
عنه وكتبت الأسفار المطولات في تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو
الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه ، لأن المسألة
خرجت من عداد المسائل التاريخية وانتقلت إلى ميدان النزاع بين
الأحزاب والمذاهب وأقارب الجدل والحجاج ، فجعلها الشيعيون وأهل
السنة ذريعة إلى تأييد مذهب وإنكار مذهب في الخلافة والخلفاء ،
وراح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع ، ولا طائل
هنا من شرح هذا وذاك ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن ، وإنما
المرجع فيه إلى تاريخ عثمان

إلا أننا نجتزئ هنا بالإشارة إلى التذمر الذي أثار الفتنة ، والإمام
بأسبابه عند أصحابه ، فما لا شك فيه أنهم تدمروا لأسباب تثيرهم وإن
طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب

أم هدم الأسباب أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبي عليه
السلام في الأذان والصلاة ، وأنه أدنى أناساً من أقاربه كان رسول الله

عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال ، وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران ، وأنه منح سفيان بن حرب مائتي ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج بنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال ، وأنه توسع في بناء القصور وحرم بعض الصحابة وضرب بعضهم على مشهد من الملاء ضرب إهانة وإيذاء

ولم تنقُض سنوات على هذه الحال حتى كثرت المترفون من جانب والمتربون من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزيد بالثهم واللجاجة ، وإضافة الأوهام إلى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحناء

ويدل على خطر مسألة الثروة في هذه الفتنة أن الناس تألبوا على الخليفة مرة فأرسل في طلب علي ليصرفهم عنه ، فلما قدم إليه استأذنه في إعطائهم بعض الرغد العاجل من بيت المال ، فأذن له . فانصرفوا عن زعماء الفتنة وهدأوا إلى حين

ثم توافد المتذمرون من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة ، فلما حملها عمار بن ياسر إليه غضب وزيره مروان بن الحكم وقال له : « إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس . وإنك إن قتلتَه نكلت به من وراءه » فضربوه حتى غشي عليه

وفي مرات أخرى كان الخليفة يصغى إلى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه ، ثم يعلن التوبة إلى رعاياه ويؤكد لهم الوعد بإقضاء أولئك الأعوان وإخلافهم في أعمالهم بمن يرضى المسلمين ، ويرضى الله

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته فيبقيهم حيث كانوا ويملى لهم فيما تعودوه من الترف والنكابة ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم أبغض أولئك الأعوان إلى المسلمين حتى من أهل الخليفة المقربين .

وكان بعض الوفود يشكون ولااتهم فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على ملاء من الشاكين الذين ينتظرون الإنصاف . فيعود المضروبون إلى الشكوى وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسمى إليهم . فإذا توجه الوالى الجديد إلى مكانه إذا فى الطريق رسول يحمل خطاباً للوالى المعزول يأمره فيه بقتل من يفد إليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية ، ويقره فى مكانه !

حدث هذا مع وفد مصر واختلفت الأقاويل فى تأويله من متهم للخليفة ومتهم لمنافسيه على الخلافة ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم — عنصر السوء فى هذه المأساة كلها — وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق ، إذ كان أيسر شئ على مروان لو كان بريئاً من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال

الغلام حامل الخطاب ، وفي كشف هذه الحقيقة إبراء له وتعزيز لسلطان الخليفة وفضيحة لأعدائه وإدحاض لحجة الفتنة ودعوة الإثارة والتحريض ، ولكنه أهمل السؤال وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه

وظال الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون لاهم في حرب ولاهم في سلام

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر زاد الخليفة ضعفاً وزاد الثوار ضراوة وزاد التوجس بينهم استفحالاً واتسع مع التوجس مجال السعاية والإرجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله

وتوسط على بين الخليفة والثوار فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة لتلبية لنصيحة على . ومنهم من يسىء الظن ويرى أن الخليفة إنما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأمصار وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى

وتفاقت الفتنة وأحاط الثأرون ببیت عثمان لا يقنعون في هذه الكرة إلا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة وجاء في رواية « شداد بن أوس » أن علياً رضى الله عنه خرج من

منزله يومئذ معتمداً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه ، أمامه الحسن وعبد الله ابن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه على وقال بعد تمهيد وجيز : « ... لا أرى القوم إلا قاتليك فمرنا فلنقاتل » . فقال الخليفة : أنشد الله رجلاً رأى الله حقاً وأقر أن لى عليه حقاً أن مهريق في سبى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه في . فأعاد على القول فأعاد عليه هذا الجواب . ثم خرج من عنده إلى المسجد وحضرت الصلاة فنادوه : يا أبا الحسن ! تقدم فصل بالناس . فقال : لا أصلى بكم والإمام محصور ، ولكنى أصلى وحدي . ثم صلى ونحده وانصرف إلى منزله ، وترك ابنه مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر في الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء . عساهم إن علموا ذلك أن يتهيبوا المركب فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه

إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة ، فتسوروا الدار ووافوا في دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه

وللافاضة في مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل مكان غير هذا المكان وكتاب غير هذا الكتاب

فإنما نحن في صدد الموقف الذي وقفه على من هذه الجريمة وما ينم

عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريته وجهره ، وإنما يعنيننا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر في هذه الجريمة ؟ أكان في مقدوره عمل صالح يعمل به لإنقاذ عثمان من هذا المصير ؟

ونحن لا نسأل هذا السؤال لترجع في جوابه إلى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين . فقد سال في الخلاف على هذا السؤال دم غزير وممداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذي لا رى فيه

ليس علينا هذا لأننا نستطيع أن نعبره إلى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها ، وفيها الغنى — ولو بعض الغنى — عن الإسهاب في السؤال والجواب

فالحقيقة التي لا يطول فيها الريب أن علياً رضى الله عنه لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه

فقد كان معاوية والياً عزيزاً له جند يرسله إلى الخليفة فيجنيه في الشدة اللازمة وإن أباه ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن أعلى ولا لأحد من خلصائه ، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان إلى الرضى بالحراسة أو الرضى بالرحلة إلى مكة أو الشام ، لو أراد

وكان في وسع عثمان أن يرحل إلى مكة وهي آمن له من المدينة ، أو يرحل إلى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار على العصيان

أما على فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة
المحفوفة بالمصاعب من كل جانب

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح ، وكان عليه أن يرفع العقبات
والحواجز من طريق الفرس كلما حيل بينها وبين الانطلاق !

كان ناقدًا لسياسة عثمان و بطانته التي حجبته عن قلوب رعاياه ،
ناصحًا للخليفة بإقصاء تلك البطانة وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه
باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالثوار كلما هجم الثوار على تلك البطانة
وهو بإقصائها عنوة من جوار الخليفة

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الإصلاح ، وكان
الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار

ولم يكن في العالم الإسلامي كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة
التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقاه في كل خطوة من
خطواته انه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب
الإصغاء إلى الرأي والعمل بالمشورة ، وإنما كان مروان بن الحكم موضع
الحظوة الأولى بين المقرين إليه . لا ينجو من إحدى جناياته التي كان
يجنبها على الحكومة والرعية حتى يعود إلى الخليفة فيوقع في روعه أن

علياً وإخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب
الثأرين عليه ، وأنه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم ويلتمس
الأمان عند عشيرته وأقربائه ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم
رغبة في دوامه

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في إصلاح الأمر وقع الفتنة لم
يكن على مدعوا ولا منظوراً إليه بعين الثقة والمودة . بل كان المدعوون
إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه ، وهم معاوية وعمرو بن العاص
وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم في
جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم على وجهرة الصحابة ، وبرمت بهم
صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء وانكم وزرائي
ونصحائي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن
أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاجتهدوا
رأيكم وأشيروا علي »

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية
لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلي »

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته ولا يريد أن يغضب أحداً من
أصحاب الولايات في غير مصره !

وقال عبد الله بن عامر : « رأي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد

يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همّة أحدهم إلا نفسه . . . »

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالي أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب ! وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فأعطيهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »

رأى رجل يشتري الرضى بالرشوة ، ويستبقى ما في يديه منها وقال عمرو بن العاص وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزمًا وامض قدمًا » رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، وهذا بقي حتى تفرق المجتمعون ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير المؤمنين لآنت أعز عليّ من ذلك . ولكنني قد علمت أن سبيلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيرًا وأدفع عنك شرًا . . . »

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ، وفي مقدمتهم على وإخوانه . ثم تفرق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله

فكانت حيلة على في تلك المعضلة المصيبة جد قليلة ، وكان الحول
الذى في يديه أقل من الحيلة

إلا أنه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين ،
معصوب بالتبعتين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن
الثوار أمام الخليفة

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة يتخطون الخليفة إليه ويعرضون
الخلافة عليه ، فلقبهم أسوأ لقاء وأنذروهم لئن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم
عنده وعند الخليفة القائم جزاء العصاة المفسدين في الأرض

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التى يتهمون بها
بطانة عثمان فى أيديهم : جاءوه بالخطاب الذى وجدوه فى طريق
مصر مع غلام عثمان يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم إلى
تولية العامل الذى يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ولم يشأ أن يتلى
لهم فى ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه ، وجعلهم
متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين فقال لهم : وما الذى جمعكم
فى طريق واحد وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة ؟

وكانت حيرة على بين التقريب والإبعاد أشد من حيرته بين الخليفة
والثوار . فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ،
ويُستدعى إليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك
قال لابن عباس الذى حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله فى ينبع :

« يا ابن عباس ! ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملًا ناضجًا بالغرب — أى الدلو — أقبل وأدبر : بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج ، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثمًا »

ثم بلغ السيل الزبى كما قال عثمان رضى الله عنه ، فكتب إلى على يذكر له ذلك ويقول : « إن أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمي وطمع فى من لا يدفع عن نفسه فإن كنت ما كولا فكن خير آكلى

وإلا فأدركنى ولما أمزق ... »

فعاد على وجهه فى إنقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه . فكلمهم يريد تغييراً يأتى من قبل الغيب أو يأتى من قبل الآخرين ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه . ولعل الخليفة لو شرع فى التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر فى النفوس ولغطت به الأفواه

وعد الخليفة وعده الأخير ليصلح الأموال ويبدل العمال وأحاطت به بطانته كدأبها فى أثر كل وعد من هذه الوعود، تنهاه أن ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه إن هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال فى هذه الغاشية التى تضل فيها

العقول فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء على والإعراض عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطانته من إقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة ! فكان مروان يقول له : « والله لا قامة على خطيئة تستغفر الله منها أجل من توبة تخوِّف عليها » ...

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار ، كما قال لهم يوما : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شأنت الوجوه . . . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا . . . ارجعوا إلى منازلكم فانا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا »

إذن بطلت الروية ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدري كيف تبدأ ، ولا يؤتَّى لأحد إذا هي بدأت أن يقف بها دون منتهاها

هجم الثوار على باب الخليفة فمنعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومحمد ابن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة واجتلدوا فمنعهم عثمان وقال لهم : أتم في حل من نصرتي ، وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله . ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله ، فجن جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأتم تريدون قتلي . . . » . وعز على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحه فافتحموا الدار من الدور التي حولها . وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد إحجام كثير

لو لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة لوقعت في لحظة غيرها
لا يدري كيف تبدأ هي الأخرى . فإنما هي بادرة واحدة من رجل
واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجمين أو المدافعين ،
ولا أكثر من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى ومدافعين لا يضبطهم عنان
ونقل الخبر إلى المسجد وفيه على جالس في نحو عشرة من المصلين
فراعه منظر القادم وسأله : ويحك ما وراءك ؟ . . . قال والله قد فرغ
من الرجل . فصاح به : تبا لكم آخر الدهر ، وأسرع إلى دار الخليفة
المقتول . فلطم الحسن وضرب الحسين وشم محمد بن طلحة وعبد الله
ابن الزبير وجعل يسأل ولديه : كيف قتل أمير المؤمنين وأتما على
الباب ؟ فأجاب طلحة : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ،
لو دفع مروان ما قتل »

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت المدينة خمسة
أيام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيئهم إلى
القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على علي وهو يهرب إلى الحيطان ^(١) ،
ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة
فلا يجيئهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولى أحداً من هؤلاء الثلاثة ! فمضوا
إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا : إنك من أهل الشورى . فلم يقبل

منهم ، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا في أمرهم . ثم قالوا :
إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اخلف الناس في
أمرهم ولم نسلم ، فرجعوا إلى علي فآلحوا عليه ، وأخذ الأشر بيده فبايعه
وبايعه الناس وكلهم يقول : لا يصلح لها إلا علي . فلما كان
يوم الجمعة وصعد على المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه
طلحة بيده السلاء ، فقال قائل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم الزبير ،
ثم قال الزبير : إنما بايعت علياً واللج على عني والسلام . . . »

وهذا الخبر على وجازته قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة
بالمدينة عند مقتل عثمان ، وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير
اللذان أعلنوا الحرب على علي بعد ذلك ، فقد كانا يمهدان لها في حياة
عثمان ويحسبان أن قريشاً قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي ، وأن
علياً وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت
السيدة عائشة تؤثر أن تؤول الخلافة إلى واحد من هذين ، أو إلى عبد الله
ابن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج أختها أسماء ، وفي
تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير في النجاح

على أن الرأي هنا لم يكن رأى قريش ولا رأى بني هاشم
فلو أن عثمان مات حتف أنفه ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن
تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير علي بن أبي طالب ، وجاز أن

يختلف بنو هاشم فلا يجتمع لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة وهم عقيل وعلى وابن عباس

ولكنها الثورة الاجتماعية التى تنشأ رجلها دون غيره ولا محيد لها عنه ، فإن ترددت أياماً فذاك هو التردد العارض الذى يرد على الخاطر لا محالة قبل التوافق على رأى جازم . ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذى تتجه إليه وحده على الرغم منها

فطلحة والزبير كانا يشبهان عثمان فى كثير مما أخذه عليه المتخرجون فى الدين وتمرد له الفقراء المحرومون : كانا ينخوضان فى المال ولا يفهمان الزهد والعلم على سنة النافعين المترمطين ، فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووافق رجائهم فهاهم بواجديه فى غير على بن أبى طالب ، وقد قال بحق : « إن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطعمون فى الخلافة مقالته عن العامة فى انقيادهم إليه بغير رهبة ولا رغبة . فقد كان أولئك الخاصة جميعاً على رأى العامة فى حكومة عثمان وبطائنه ، وإن أخفى بعضهم لومه ولم يذهب بعضهم فى اللوم مذهب الثوار فى النزق وسفك الدماء

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هى أولى الحقائق بالتوكيد والاستحضار كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد فى خلافة على رضى الله عنه . فإذا هى فُهمت على وجهها فكل ما عداها مفهوم البواطن

والظواهر منسوق الوارد والمصادر ، وإذا هي لم تفهم على الوجه الأمثل
أو تركت جانباً وبحث الباحثون عن العلل والعواقب في غيرها فالعهد
كله غامض مجهول ، والموازن كلها مختلفة منقوصة سواء في تقدير
الرجال أو تقدير الأعمال ، وجاز حينئذ أن يرمى على بالخطأ ولا خطأ
عنده يصححه غيره في موضعه ، وإنما هو حكم الموقف الذي لا يحيد
عنه . وجاز كذلك أن يُنحل خصومه فضل الصواب ولا صواب
عندهم ، لأنهم مضطرون إلى ورود هذا المورد فكروا فيه أو طرقوه اعتسافاً
بغير تفكير

فلم تكن المسألة خلافاً بين علي ومعاوية على شيء واحد ينحسم فيه
النزاع بانتصار هذا أو ذاك

ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين :
أحدهما يتمرّد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل
فيها إلى البقاء والاستقرار

أو هي كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت في علي بن أبي طالب ،
والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر على فيحكم في مكان معاوية أو
ينتصر معاوية فيحكم في مكان علي . بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم
كيف تكون إذا تغلب واحد منهما على خصمه ؟ أتكون مبادئ
الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة الدنيوية ؟ أتكون مبادئ الورع والزهادة

أو مبادئ الحياة على أساس الثروة الجديدة كما توزعت بين الأمصار
وتفرقت بين السراة والأجناد والأغوان ؟

فلو أن علياً ملك الشام ومصر والعراق والحجاز وجرى في سياستها
على سنة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ والإسراف لبقيت
المشكلة حيث كانت ولم تكن هزيمة معاوية إلا زينة يتجرد للدولة منازع
آخر يحاول الغلبة من حيث فشل

ولو أن معاوية ملك المدينة إلى جانب ملكه وجرى في سياستها على
سنة الحفاظ والقراء لما أَرْضاهم ولا انقاد له أحد من أشياعه
فالحسم حق الحسم هنا إنما هو تغليب مبادئ الملك أو مبادئ الخلافة،
ولا حيلة لعلى ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه لو جهد
له جهد الطاقة

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبساً متشابكاً في عهد عثمان :
كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينية
ونصف إمارة دنيوية

فوجب أولاً أن يتضح الموقف بينهما وأن يزول الالتباس عن
فلق صريح

ووجب وقد زال الالتباس وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان أن
يبلغ الخلاف مداه ، ولن يزال قائماً حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين
وحكم من الحكمين ، وليس لعلى أو معاوية على التخصيص

هذه هي العلة الكبرى التي تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة
وخلق بكل علة أخرى أن تكون تعلقة موضوعة يستر صاحبها غير
ما يبطن ، أو ينخدع في زعمه وهو غافل عن معناه

خذ لذلك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على علي ليطلبوا بدم
عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض مدافع علي عنه . وقد كان عثمان
كثيراً ما يقول : « ويلي من طلحة ! أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو
يروم دمي . . . اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » . . . وساء ظن
الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله
يرمي الدار ويقود بعض الثائرين الى الدور المجاورة ليهبطوا منها إلى دار
عثمان ، وهو حديث يفتقر إلى السند الوثيق ، ولكنه ينم على ظن الناس
بصدقة طلحة للخليفة المقتول .

وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام علي في دم
عثمان وعلل اتهامه لعل بتقصيره في القود من الثائرين ، وهم ألوف يحملون
السلاح وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء
الآلوف المسلحين . فماذا صنع معاوية بقائلي عثمان حين صار الملك إليه
ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال ؟ إنه
اتبع علياً فيما صنع وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد وقد ذكره به وألحقوا
في تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان
صبيحة عائشة بنته وهي تبكي : وا أبتاه ! فلم تزده هذه الصبيحة المثيرة

إلا إصراراً على الإغضاء والإعفاء . وقال لها يعزيبها : « يا ابنة أخى !
إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ،
وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان
أنصاره . فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعليتنا تكون أم لنا .
ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من
عرض المسلمين . . . »

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين
ولكان عذر على فى بداية المحنة أعظم حجة وأحق بالقبول
أو خذ لذلك مثلاً علة عمرو بن العاص وقد كان أول الناصحين
لعثمان بالاعتزال ، بل كان عثمان يخطب ليسترضى الناس وعمره يصيح
به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت أموراً
وركبناها معك . فتب إلى الله نثب . . . » ثم ترك عثمان فى المدينة
بين المؤتمرين به ومضى إلى فلسطين وسمع وهو يقول : « والله إني
كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان »

فكل علة للثورة على خلافة على فى تعلل موضوع ينخدع به
قائله أو ينخدع به غيره . إلا تلك العلة التى طوت فيها جميع العلل ظاهرها
وخافيتها وصريحها ومكذوبها ، وهى الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية
ومبادئ الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين وإن
كان فى ظاهره فصلاً بين رجلين

فلما بويع على بالخلافة كانت هذه البيعة إيذاناً بانقسام الحلقة بين
النتين للصراع الأخير ، أو كانت إيذاناً باصطفاف المتسابقين إلى غاية
لا بد من بلوغها ، ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير
انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذى تهيأت له عناصر النظام
الاجتماعى الجديد

فأما انتهاء الملك فى بدايته فقد كان بعيداً — بل كان عسيراً جداً
فى تلك الآونة — كما يعسر انطفاء النار وهى تهب بالاشتعال
وإما انتهاء الخلافة فهو الذى كان ، وهو الذى كان منظوراً أن
يكون ، ولم يكن غيره بمنظور . فمن الفضول لوم على على شىء من
الأشياء التى أفضت إلى هذه الخاتمة ، وهى محتومة ليس عنها محيد
إذ لم يكن طبيعياً أن يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل
واحد تثوب بعده الطبائع إلى فطرتها من نشأة الخليقة الأولى ، وقد يتفق
كثيراً أن يغمرها جلال النبوة أو جلال الخلافة النبوية وهى فى إبان
النضال والحمية الدينية ، فتنسى المطامع وتسهر عن الحزازات وتستعذب
الألم والفداء إلى مدى الطاقة الإنسانية ، ولكنها تبلغ مدى الطاقة
الإنسانية بعد حين ، وتفتقر عن النهوض من قمة إلى قمة فتترك آخر
الأمر إلى الأرض السواء حيث لا حافر ولا مستنهض إلا مجارة الطبيعة
فى مجاريها التى لا تشق عليها ، وإن المصلحين ليرضون غاية الرضى إذا
هى حفظت من إصلاحهم عند ذلك وازعا يهديها بعد ضلالة عمياء ،

ويردعها بعد جماع مريد ، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل
منطلقاً بغير عنان

وقد نظر النبي عليه السلام بعين الغيب إلى هذا المصير فقال :
« الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك » . . . وأنبأ بانقسام
الفرق وتشعب الأهواء كأنما كان ينظر إلى ذلك بعينه صلوات الله عليه

واتبع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له
أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم
أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العاقبة ،
أو أنها كانت كفيلة باجتناّب المآزق التي ساقته الحوادث إليها

فمن اللحظة الأولى أخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي
لا قوة له بغيرها

ف عزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة وتمرغوا بالدنيا وطمعوا
وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد
وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين

ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوى الرحم ،
فصرفت عن وجوهها التي جعلت لها من إصلاح المرافق وإغاثة المفتقرين
إليها على شرعة الإنصاف والمساواة

ورجع إلى خطة أبي بكر وعمر في تجنب الصحابة الطامحين إلى
الإمارة فتنة الولايات مخافة عليهم من غوايتها وإبعاداً لهم من دسائس
الشيع والعصبيات . فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن قال
لهما : بل تبقيان معي لأنس بكما ، وسأل ابن عباس : ما ترى ؟ فأشار
بتولية الزبير بالبصرة وتولية طلحة الكوفة . قال علي : ويحك ! إن
العراقيين بهما الرجال والأموال . . . ومتى تملكنا رقاب الناس
يستميلان السفية بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على
القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت
معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان
لي فيها رأى »

نعم إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على
يديه ، ولكن السياسة الأخرى كانت تفضب أنصاره ولا تضمن له رضى
المنافسين ودوامهم على الرضى والوفاق بينهم في تأييده . وكانت تخالف
عقيدته التي يدين بها نفسه وأقرب الناس إليه ، وتخالف وعده وعقيدة
الناس فيه . ولن يكون ملكاً غالباً بسياسة الملك على كل حال . فإن
لم يكن خليفة فما هو بشيء ، وإن كان خليفة وملكاً فهي خطة عثمان
التي لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف ، وإن كان
خليفة ولا اختيار له في ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض
له الحكمة ، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد

وعلم أن قريشاً لا ينصرونه فنقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة .
لأن قريشاً كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته وقد تركه أقربهم
إليه ورحل إلى معاوية طمعاً في رفقده ، أو كانوا أمويين وهم حزب
معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تيم وهم حزب طلحة . أو من عدى
وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى وهم كما قال
« قد هربوا إلى الأثرة » فإذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس
لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولا .

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت
صفوف الحجاز كله له أو عليه . فكان معه جميع الشاكنين لأسباب
دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان ،
وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة وحالت الخلافة
الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه .

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير .

فخشدوا جموعهم إلى البصرة وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت
ترغب في خلافة طلحة . لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو
أمير على الحج من قبل عثمان ولما يزل قائماً بالخلافة ، فقالت له :
يا ابن عباس ! أنشد الله فانك قد أعطيت لساناً إزعيلاً — أى ماضياً —
أن تخذل عن هذا الرجل — تعنى عثمان — وأن تشكك فيه الناس .
فقد بانث لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر

قد جم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فان يلى يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه . فأجابها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث ما فرغ الناس إلا إلى صاحبنا — أى على — . . . فقالت : إيهأ عنك . إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتيك .

فلما بويح على فى المدينة لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه ، ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه السلام فى مسألة الإفك التى قيل إنه أشار فيها بتطبيقها ، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التى سميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهودجها . فانتصر على وقتل الزبير ومات طلحة بجرح أصابه فى المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين فى الحجاز والعراق

على أن هذا النصر العاجل لم يخل من آفة تكدره وتندب بالخاوف التى يوشك أن يلقاها على فى حربته لخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير ، وأقوام معاوية بن أبى سفيان صاحب الشام

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة فى جيش من المتمردين والمتذمرين . فانهم يستحمسون فى عقيدتهم وهى فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادى فى اللد و إعجال قائدهم عن إنعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية

فقد كان على يميل — كدأبه — إلى مفاتحة الخارجين عليه في
المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبائية — أتباع عبد الله
ابن سبأ — وهم أخلص الناس له وأغیرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيبتهم
ولدهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا
التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هوادة فيها . فدهموا القوم
وأوقدوا جذوة الحرب قبل أن يفرغ على من حديث المهادنة والتقريب
بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه .

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التي أضرته بها حماسة المتمردين
والمتذمرين في جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى منى بالعترة
التي لا تقال

وكان ذلك في وقعة صفين

فانه نظر بعد غلبته في العراق فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق
الخلافة إلا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها
مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعنى
بها خطة المسالمة والبدء بالاقناع ، فطالت المراسلة منه إلى معاوية ومن
معاوية إليه ، وفي مثل واحد منها ما يغنى عن كثير

كتب إلى معاوية بعد وقعة الجمل وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة
« سلام عليك ! أما بعد فان بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام ،
لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه . فلم

يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين
والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضى .
وإن خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه
على أتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم
وساءت مصيرا . وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما ، وكان
نقضهما كردهما ، فجاهدتهم بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق وظهر
أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون فإن أحب الأمور
إلى قبولك العافية ، وقد أكرت في قتلة عثمان ، فإن رجعت عن
رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكمت القوم إلى
حملتك وإياهم على كتاب الله . وأما تلك التي تريدها — يعنى الخلافة —
فهي خدعة الصبي عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك
لتجدننى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم أنك من الطلقاء ^(١) الذين
لا تحمل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى . وقد بعثت إليك وإلى من
قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعه ،
ولا قوة إلا بالله »

فرد عليه معاوية بما يلي :

« سلام عليك . أما بعد فلعمرى لو بايعك الذين ذكرت وأنت
برىء من دم عثمان لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان . ونكنك أغريت

(١) أطلق معاوية وأبوه من الأسر يوم فتح مكة .

بدم عثمان وخذلت الأنصار فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد
أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت
كانت شورى بين المسلمين . وإنما كان الحجازيون هم الحكماء على الناس
والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكماء على الناس أهل الشام ، ولعمري
ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ، إن كانا بإيعاك
فلم أبايعك أنا . فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه . . . »

ومن رد معاوية هذا تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف
واحداً بعد واحد كلما أغلق باب منها بقي من ورائه باب مفتوح لا ينتهي
الخلاف باغلاقه

فتسليم قتلة عثمان لا يكفي لأن علياً نفسه متهم بالاغراء والتخذيل
وبراءة على من هذه التهمة لا تكفي لأن المرجع بعد ذلك إلى
الشورى والنظر في البيعة من جديد

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفي لأن الحق قد خرج منهم
إلى أهل الشام ، وهم الحكماء على الناس . . . لأنهم يحكمون لمعاوية
ولا يحكمون لغيره

ومن ثم بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند
ما يقال باللسان غير ما يجول في الصدور

وزحف على من الكوفة إلى صفين ، ووجد جيش معاوية على الماء

فنجاه عنه بعد أن أبى عليه ومعاوية أن ينحيه بغير قتال
وبدأت العثرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال ،
فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخو يحرمها ولا
يقول بوجوبها ، وتحاجز القوم نيفا وثمانين فرقة . وتصاولوا في وقعات
شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان
في وقعة جامعة حتى كانت وقعة الحرير وحاقت الهزيمة بجيش معاوية
وقيل إنه هم بالفرار ، وإذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش
الشام ، وإذا بالعثرة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح
فإن عايما نظر حوله فإذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعا على
القتال أو القاء السلاح ، وأن معاوية لفي غنى عن كفاح قوم لا يتفقون
على كفاحه . فله منهم سيوف وزماح مشرعة لنصره شاءوا أو لم يشاءوا
وسيكفونه مؤنة الحرب حتى ينفقوا بينهم على حربه ، وهيهات ؟

ولو كانت آفة الطاعة في جيش على مقصورة على اجتهاد القراء
والحفاظ وتعجل الغلاة والمتمرين لكان في ذلك وحده ما يكفي لافساد
واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله . إذ لا يستغنى القائد في
ميدان الحرب ولا في ميدان السياسة عن الكتمان والمفاجأة وتحويل
الخطط على حسب الطوارق والمناسبات . فاذا كان في كل عمل
من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوى ، وكانت أصحاب الفتاوى

يفترقون عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش ، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيباً بعد ذلك أن ينهزم في ميدان القتال شر هزيمة يتبلى بها مقاتل . بل العجيب أن يتناسك فترة من الزمن وإن قصرت أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره إلى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشينة مطاعة

ولكن الآفة مع هذا لم تكن كلها في اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة . بل كان في الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره ، فإن لم يكونوا كذلك فالأمر الذي لاشك فيه أنهم كانوا يعملون وهم عامدون وغير عامدين شرما يعمله الخائن الخبيث الذي يتحين الفرص للعناد والشقاق وإفشاء الخلل والخذلان في أخرج الأوقات

وأدهى من ذلك أنه لم يكن قادراً على زجرهم والتنكيل بهم ، لأن الجيش الذي يوجد فيه من يحرم حرب العدو لن يعدم أناساً يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة وليس لك بينة قاطعة عليه ومثل من ذلك أيضاً يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث ابن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزباً على حزب لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه

طمح هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي عليه السلام فدعا قومه أن يتوجوه وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر في حصنه أياماً

ويئس من الغلبة فاستسلم على أن يصاب دمه ودم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة . فلما نشبت الفتنة بين على ومعاوية كان هو من حزب على يتطلع للفرصة السانحة

ثم زحف على رضى الله عنه إلى صفين فكان الأشعث أول المندفعين إلى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء . وجاء علياً يقول : « يا أمير المؤمنين ! أئمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟ ولنى الزحف إليه فوالله لا أرجع أو أموت »

ولكنه عاد إلى المسالمة بعد أن وضح النصر في ليلة الهريز فخطب في قومه من كندة قائلاً :

« قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب ، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن توافقنا غداً إنه لفنيت العرب وضيعت الحرامات . أما والله ما أقول هذه المقالة جزءاً من الحرب ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى غداً إذا فنيانا »

ثم ذهب إلى على رضى الله عنه بعد رفع المصاحف فقال له : ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم

القرآن . فإن شئت أتيت معاوية فسأله ما يريد فنظرت ما يسأل «
ولقي معاوية فسأله : يا معاوية ! لأى شىء رفعتم هذه المصاحف ؟
قال : « لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل فى كتابه . تبعثون
منكم رجلاً ترضون به ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملأ بما فى
كتاب الله لا يعدوانه ثم نبيع ما اتفقا عليه »
فقال الأشعث : هذا الحق !

وعاد إلى علىؓ ينادى بالتحكيم ويختار له هو وأنصاره رجلاً ينوب
عن علىؓ ، وعلىؓ لا يرضاه
وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترأوا على أمير المؤمنين فلم يبالوا
أن يجبهوه بالقول السىء ، منذرين متوعدين :
« يا على ! أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه ،
وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بأبن عفان . إنه عرض
علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه . والله لتفعلنها أو
لنفعلنها بك »

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعى من ساحة الحرب ، وإلا
اعتزلوه أو قتلوه

فقبل التحكيم وهو كاره

واختار أهل الشام عمرو بن العاص فقال الأشعث : فانا قد رضينا
بأبى موسى الأشعرى

قال علي : إنه ليس لي بثقة . قد فارقتني وخذّل الناس عني ، ثم
هرب مني حتى آمنته بعد أشهر . ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك
قالوا : لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى
واحد منكما بأدنى إلى الآخر

قال : فإني أجعل الأشر

قال الأشعث وهو ينفس على الأشر مكانته و بلاءه من قبل : وهل
سعر الأرض غير الأشر ؟ أو قال : وهل نحن إلا في حكم الأشر ؟
فلما رأى إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : فقد أيتّم إلا
أبا موسى ؟

قالوا : نعم !

قال : فاصنعوا ما بدا لكم ! ..

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش علي لم يدع من وسعه شيئاً
لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذي
يختاره نصيراً له مؤمناً بحقه وصحة رأيه . ولا طائل في البحث عن علة
هذا الخذلان الصريح أكان هو الطمع في الملك بعد فشل على أم النعمة
على الأشر النخعي في مكانته و بلائه أم التواطؤ بينه وبين معاوية
على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة . فإنما النية الخبيثة ظاهرة وإن
استترت العلة ، وأياً كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع
لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذي هو فيه

قال على يصف قسمته من الأنصار وقسمته من النوازل والعثرات :
« لو أحبنى جبل لتهافت ! »

وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهى الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . . . ما عزت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل دفاع ذى الدين المطول . . . أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ! المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل^(١) ، أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبكم ؟ القوم رجال أمثالكم ، أقولا بغير علم ؟ وغفلة من غير ورع ؟ وطمعاً فى غير حق . »

وهى صيحة لا تصف إلا بعض ما يعانىه من حيرة لا مخرج له منها فى سياسة أصحابه . فإنه لم يفرغ من التحكيم الذى أذعن له وهو كاره حتى فوجئ ببطائفة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولاً للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين ، وهو عندهم كفر بواح . أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذاك !

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التى وقع عليها الاختيار لتكون

(١) الأفوق هو السهم المكسور فى موضع الوتر والناصل العارى من النصل

وسطاً بين العراق والشام ، ولم يكن قرار الحكمين خافياً على من عرفوا
أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص . فان أبا موسى لم يكتف رأيه قط
أن السلامة في اجتناب الفريقين والقيود عن القتال . فليس أيسر من
إقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأي إلى
عمرو بن العاص في إقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التي ترضيه
إلا أن الدهاة من العرب كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن
يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أنابه عنه .
ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة
إلى يوم التحكيم . فلما اجتمع الحكماء علم أنها الجولة الأخيرة في الصراع
فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور على سنة الدهاة من أمثاله إذ
يتنسمون الريح قبل هبوبها ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها .
فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول البال
بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا الإبطاء
المريب . فقال له وهو يرى اشتغال باله : قد أتيتك بنخب الرجلين

قال معاوية : وما خبرهما ؟

قال المغيرة : إني خلوت بأبي موسى لأبلو ما عنده ، فقلت : ما تقول
فيمن اعتزل عن هذا وجلس في بيته كراهية للدماء ؟ فقال : أولئك خيار
الناس ، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم و بطونهم من أموالهم . فخرجت
من عنده وأتيت عمرو بن العاص فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل
هذه الحروب ؟ فقال أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقاً ولم ينكروا باطلاً

ثم عقب المغيرة قائلاً : أنا أحسب أبا موسى خالماً صاحبه وجاعلها
لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه في عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما
عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو
لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه

وقد أحسن المغيرة حزره نقل الحرف بالحرف في تقدير نية الرجلين ،
فإنهما ما اجتماعاً هنيئة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : يا عمرو !
هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟
قال : وما هو ؟

قال : نولى عبد الله بن عمر فإنه لم يدخل نفسه في شيء من هذه الحروب
فراغ عمرو قليلاً يحاول أن يلتقي في روع صاحبه أنه يريد معاوية ،
ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم
هجرته وصحبته ؟

فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا أنه قال : إن ابنك رجل صدق
ولكنك غمسته في هذه الحروب غمساً

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه في كل لقاء ، وطفقا يبدئان منه
ويعيدان إليه بعد كل جدال ، حتى وقر في خلد الأشعري أن خلع
الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره . فتواعدا إلى يوم
يعلنان فيه هذا القرار

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « أيها الناس ! إنا قد نظرنا
في أمر هذه الأمة فلم نرأصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع

رأى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت علياً ومعاوية . فاستقبلوا أمرهم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً »

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « . . . إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان رضى الله عنه والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »
فغضب أبو موسى وصاح به : مالك لا وفقك الله . غدرت وفجرت ، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

فابتسم عمرو وهو يقول : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً ... »
كلب وحمار فيما حكاه به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة .

وبان إن اجتماع الحكمين لم يفض إلى اتفاق بين الحكمين ، فعاد الخلاف إلى ما كان عليه .

إلا أنه استشرى واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم

فقد اجتمعوا وأبرموا فيما بينهم « . . . أن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما وحكموا الرجال في دينهم ونحن على الشُّخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »

وخرجوا وعلى يأبى قتالهم حتى يئأس من توبتهم ، ولقيهم بالجيش
فأثر أن يلقاهم مناقشاً قبل أن يلقاهم مقاتلاً ، واقترح عليهم أن يخرجوا إليه
رجلاً منهم يرضونه ليسأله ويحجبه ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن
لزمهم . فأخرجوا إليه إمامهم عبد الله بن الكواء

قال عليّ : ما الذى نقيم على بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي
وطاعتكم لي فهلا برثتم مني يوم الجمل ؟

قال ابن الكواء : لم يكن هناك تحكيم

قال عليّ : يا ابن الكواء ويحك ! أنا أهدى أم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ؟

قال ابن الكواء : بل رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال عليّ : فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا ندع أبناءنا
وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » أكان الله يشك أنهم هم
الكاذبون

قال : إن ذلك احتجاج عليهم ، وأنت شككت في نفسك حين
رضيت بالحكمين فنحن أخرى أن نشك فيك

قال : وإن الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى
منهما اتبعه »

قال ابن الكواء : ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم . ثم قال بعد
كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « إنك صادق في جميع قولك غير
إنك كفرت حين حكمت الحكمين »

قال عليّ: ويحك يا ابن الكواء، إني إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا

قال ابن الكواء: فإن أبا موسى كان كافراً
قال عليّ: متى كفر! أحين بعثته أم حين حكم؟

قال ابن الكواء: بل حين حكم

قال عليّ: أفلا ترى أنني إنما بعثته مسلماً فكفر في قولك بعد أن بعثته... أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله^(١) فدعاهم إلى غيره هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء؟
قال: لا!

قال ويحك! فما كان عليّ أن ضل أبو موسى؟ أفيحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس؟
فعل الخوارج أن أصحابهم ليس بند لعليّ في مجال نقاش، فكفوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق عليّ في حجته وقصده، لولا أنهم قوم قهرتهم لاجبة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون في المضى مع العناد لذة لا يستمرثونها من الحق والمعرفة. فردوا على الشقاق وأصروا على تكفير عليّ وأصحابه وأن يعاملوهم في الحرب والسلام معاملة الكفار

(١) وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام إذا أوفد نهاراً الرجال ليهدي قوم مسيلة فانقلب هنالك مبشراً بدينه

واستبقى على بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة . فرفع في الساحة راية ضم إليها ألفى رجل ونادى : من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن ثم قال لأصحابه : لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم . فصاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم إلا لله وإن كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد . وتلقاهم على وأصحابه لقاء من نقد صبره ووغر صدره . فما هي إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج وبقى منهم نحو أربعمئة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال ، فأمر بهم على فحملوا إلى عشارهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى كما تصدى له في كل فرصة سائحة للغلبة ، وقال له على مسمع من الناس : يا أمير المؤمنين ! نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدونا !

وتسلل الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ، وأيقن على أن القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا علياً ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من على ولم يطلبوها منه ، واستمر هو في إنفاذ البعوث والسرايا إلى

كل موضع آنس منه غرة وطن بزعمائه موجدة أو سامة . فلم تنقص
سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقي على في أرباض
الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ،
ويوجس شراً من أقرب المقربين إليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه
وبين معاوية على أن تكون له العراق ولعازية الشام ، ويكف السيف
عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال

وبقيت في كنانة الأقدار مصادفةً من هذه المصادفات التي يخيل
إليك وأنت تتبعها أنها تجمعت منذ الأبد ليبوء على بنقائض الموقف
كله ويظفر خصومه بتوقيقات الموقف كله : فشأت هذه المصادفة
الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه
المسكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية وعمر بن العاص

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمر بن بكر
التميمي وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتل من رفاقهم
وتذاكروا القتل من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة
من الكفار - أو أئمة الضلالة في رأيهم - وهم على بن أبي طالب
ومعاوية بن أبي سفيان وعمر بن العاص !

فقال ابن ملجم : أنا أكنفيكم على بن أبي طالب

وقال البرك : أنا أ كفيكم معاوية بن أبي سفيان

وقال عمرو بن بكر : أنا أ كفيكم عمرو بن العاص

وإن ضعيفة النار حافز أي حافز

وإن تهوس العقيدة لمثير أي مثير

وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين يغني عن

مزيد من التحريض على القتل والانتقام

ولكن المصادفة العجيبة هي التي شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم

بحافز ثالث لعله يمضى حين ينمو هذان الحافزان الماضيان ، وهو حافز

من الغرام الظالم لا يرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم

فان المرء قد ينمى نائرة الحقد ، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة

ولكنه إذا كان عاشقاً مخموراً لا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه ، فهو

مأسور زمامه في يدي غيره ، وليس في يديه

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب قتل أبوها وأخوها وبعض

أقربائها في معركة الخوارج ، وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة

القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق ما في جوانحها من لوعة الحزن على

ذويعها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجها إلا أن يشفى لوعتها .

قال : وما يشفيك ؟ قالت : ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ، وقتل على

ابن أبي طالب !

قال : أما قتل على فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدني . . . قالت :

بل التمس غرته . فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسي وريحناك العيش مهى
وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها
وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة يقتل كل منهم صاحبه في
ذلك الموعد

فأما عمرو بن العاص فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته
وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس ، فضربه عمرو
ابن بكر وهو يحسبه عمراً فقتله . فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة
وأمر بقتله

وأما معاوية فضربه البراء بن عبد الله وقد خرج الغداة للصلاة
فوقعت الضربة على ألبته . وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكي
بالتار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ورضى انقطاع
النسل وهو يقول : في يزيد وعبد الله ما تقربه عيني ، وأمر بالرجل
فقتل لحينه

وأما عليّ فضربه ابن ملجم في جبينه بسيف مسموم وهو خارج
للاصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلثة ويقول لهم :
« يا بني عبد المطلب ! لا ألقيكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل
أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتلن أحد إلا قتلى » . . .
أنظر يا حسن ؟ إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة .
ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم
والمثلثة ولو أنها بالكلب العقور »

وهذه خاتمة فاجعة ننظر في كل فرض من فروضها فلا نخلصها من المصادفة السيئة التي لا تلقى تبعثها على أحد بعينه

فهما يقل القائلون إن علياً إنما أصيب لأنه كان لا يتقى أحداً ولا يخرج إلى المسجد بحرس فالواقع أن المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق في عثرات الحظ بينه وبين زميله الذين سيقا معه إلى مكيدة واحدة فخرجا منها بحظين غير حظه . فان ابن العاص لم ينبج من القتل لأنه خرج إلى المسجد محروساً ولكنه نجا لأنه لزم بيته في تلك الليلة ومات صاحب شرطته الذي خرج في مكانه ، ولم ينبج معاوية لأنه خرج محروساً ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت إصابته غير قاتلة .

فهي المصادفة السيئة مهما تلتبس لها علة من علل التاريخ ترجع بنا في آخر الأمر إلى علل المصادفات التي لا تقبل التعليل وشيء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة كما تصوره لنا البيعة

كلها من قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها

وذلك هو النسيج الإنساني النابض الذي يتخلل حياة على في لحمها وسداها وفي تفصيل أجزائها وجملة فحواها . فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهي معرض حافل للعواطف الإنسانية برمتها ، تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماحة ، واشتباك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم ذلك الاشتباك الذي يخلقه الشراء خلقاً في القصص والملاحم فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع

الملموس في سيرة الإمام . وقد أسلفنا في صدر هذا الكتاب أنها سيرة
تلامس النفس الإنسانية في شتى نواحيها : تلامسها من ناحية العقيدة
كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كمناسبة الخيال ،
ومن ناحية التمرد كمناسبة الولاء . فإذا اتبعت السيرة بالخاتمة فأى خيط
من خيوط تلك الشبكة الإنسانية التي تنسجها القرائح لاقتناص الشعور
وتقريب الخيال تفقده في هذه الخاتمة الفاجعة ؟ أى باعث من بواعث
القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعاداً في كل فصل
من فصولها ومشهد من مشاهدنا ؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال
الغالب ، وغرام المهوس المجنون ، وأريحية القاتل الموصى بمن اعتدى
عليه ، وحقد المرأة ، وخداع الجمال ، وزيف العقيدة ، واستواء الإيمان ،
وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموار واللهفة الدائمة في خاتمة حياة
تسع ألف حياة .

وهذه مزية على بين خلفاء الإسلام قاطبة . ينفرد بها لأنه انفراد
بمثال من النفوس ومثال من العصور ومثال من العوارض الفردية
والاجتماعية تؤلفه المصادفات في الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه
بمشيئتها في كل جيل

تلك حياة حي

وذلك مصرع شهيد



تسرى في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ،
ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلمة ، مفروغاً
من بحثها والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث
والاستدلال ، ولم تُجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ،
ثم صقلتها الألسنة فعر عليها بعد صقلها أن تردّها إلى الهجر والإهمال .

كل أولئك من لغو الشعوب ، وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة
الفواصين من الأفراد ، ولكنها إذا لغت فشوطها في اللغو أوسع من
شوط الفرد بآمد بعيد

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم إن علياً بن أبي طالب رجل شجاع
ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة

وقد شاع هذا الرأي في عصر علي بين أصحابه كما شاع بين أعدائه ،
وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وأنه
لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه ، فكان من الطبيعي أن يقال
إنه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة ، وإنه هو

لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة في الحرب أو السياسة
وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسرى بعد البحث في آرائه
وآراء المشيرين عليه أى هذين القولين أدنى إلى الصواب
ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، في عصره أو بعد عصره ،
أن يسأل نفسه : أكان في وسع علي أن يصنع غير ما صنع ؟
وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك :

هبة استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة ؟ وهل من
المحقق أنه كان يفضى بصنيعه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها ؟
لم نعرف أحداً من ناقديه خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك ،
مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب
والخطأ في رأيه ورأى مخالفيه ، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة
والذي يبدولنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة ،
أن العمل بغير الرأي الذي سيق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان
مأمون الخطر ، بل ربما كان الأمل في نجاحه أضعف والخطر من
اتباعه أعظم ، لو أنه وضع في موضع العمل والإنجاز ، وخرج من حيز
النصح والمشورة

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاة ، وخالفه فيها نقدة
التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطئ ، ولم ينظروا إليها نظرة الربان
في غمرة العواصف والأمواج

فالمأخذ التي من هذا القبيل يمكن أن تنحصر في المسائل التالية ، وهي :

- (١) عزل معاوية
- (٢) ومعاملة طلحة والزبير
- (٣) وعزل قيس بن سعد من ولاية مصر
- (٤) وتسليم قتلة عثمان
- (٥) وقبول التحكيم
- (٦) وقبول الخلافة

وهي كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين ،
فإن لم يكن خلافٌ وكان جزمٌ قاطعٌ فهو على ما نعتقد أقرب إلى رأى
على وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه

قليل في مسألة معاوية إن علياً رضى الله عنه خالف فيها رأى المغيرة
وابن عباس وزيد بن حنظلة التميمي ، وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة
وحسن التدبير

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « إن لك حق الطاعة
والنصيحة ، وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد ، وإن الضياع اليوم
تضيع به ما في غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ،
وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود
استبدلت أو تركت »

فأبى وقال : « لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنيا في أمري »
قال المغيرة : فإن كنت أبيت عليّ فإنزع من شئت واترك معاوية ،
فإن في معاوية جرأة ، وهو في أهل الشام يستمع له ولك حجة في
إثباته . إذ كان عمر قد ولّاه الشام

فقال علي : لا والله ! لا أستعمل معاوية يومين !
ثم خرج المغيرة ودخل عليه بن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة :
إنه نصحك !

قال علي : ولم نصحنى ؟

قال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تثبتهم
لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير
شورى وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتفض عليك أهل الشام
وأهل العراق

ثم مضت الأيام وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتفض على
الإمام ، فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا
الانتفاض ، وكان زياد من جلسائه

فقال له الإمام : تيسّر

قال زياد : لأى شيء ؟

قال : تفزوا الشام

فقال زياد : الأناة والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بتنسم
فتمثل على :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حميماً تجنبك المظالم
نخرج زياد إلى الناس وهم يسألونه : ما وراءك ؟ فأجابهم : هو
السيف يا قوم !

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمل به الإمام
وارتضاه . فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟
سبيل العلم بذلك أن نعلم أولاً : « هل كان الإمام مستطيعاً أن
يقر معاوية في عمله بالشام ؟ »
وأن نعلم بعد هذا « هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق
لو أنه استطاع ؟ »

وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله لسببين :
أولهما أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان إقراره وإقرار
أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان في رأى على
وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيراً ما اعتذر عثمان من إقرار
معاوية بأنه من ولادة عمر بن الخطاب فكان على لا يقبل هذا العذر
ولا يزال يقول له : إنه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه
« يرفاً » . . ولكنه بعد موت عمر لا يخاف

فإذا أقره وقد ولى الخلافة فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياءه ؟
ألا يقولون إنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول
وما سيقوله الناس ؟

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول فهل فى وسعه أن يعرض عن
آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان
إلى حكم جديد ؟

إن هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير فى
وقعة الجمل فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به ، بل هجموا على أهل
البصرة وهم مأمورون بالهدنة والأناة . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون
إذا علموا أن الولايات باقية على حالها ، وأن الاستغلال الذى شكوا
منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟

وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع . فهل
هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق ؟

كلا ! على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق
لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل وال يظل والياً طول حياته
ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتناول إلى ما وراءه ، ولكنه عمل فيها عمل
صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده . فجمع
الأقطاب من حوله واشترى الأنصار بكل ثمن فى يديه ، وأحاط نفسه

بالقوة والثروة ، واستغد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة في حينها .

فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها وإلا ضاع منه الملك وتعرض

يوماً من الأيام لضياع الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر

من عزله بعد استقرار الأمور ولو على احتمال بعيد . فماذا تراه صانعاً

إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلّ وتبرئته إياه من دم عثمان ؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الإرجاء

وإذا كان هذا موقف عليّ ومعاوية عند مقتل عثمان فماذا كان عليّ

مستفيداً من إقراره في عمله وتعرض نفسه لغضب أنصاره !

لقد كان معاوية أخرى أن يستفيد بهذا من عليّ ، لأنه كان يغم

به حسن الشهادة له وتركه عمله في الولاية ، وكان يغم به أن يفسد

الأمر على عليّ بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الإمام

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيته أن

صواب الإمام في مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفه ، فإن لم

تؤمن بهذا على التقدير والترجيح فأقل ما يقال أن الصواب عنده

وعندهم سواء

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية

وولاية عثمان على الأمصار :

لأن الرأي الذى عمل به الإمام معروف ، والآراء التى تخالفه لا تعدو واحداً من ثلاثة : كلها أغمض عاقبة وأقل سلامة وأضعف ضماناً من رأيه الذى ارتضاه

فالرأى الأول أن يوليها العراق واليمن أو البصرة والكوفة ، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأنكره الإمام لأن « العراقيين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكوا رقاب الناس يستميلان السفينة بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان . . . » ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية ، وقد استفادا من إقامة الإمام لهما فى الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة ويشيران بها أنصاره عليه

والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ، وهو لا ينجح فى الوقعة بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر . فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره ، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية أو يبقى فى المدينة على ضغينة مستورة

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة إلى البصرة ، فوقع الخلاف فى عسكرهما على من يصل بالناس ، ولولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين

ولم تطل الحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ، وخرج الإمام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو بقيا على

السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة
والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين ولا يبيح لهما الخروج من المدينة
إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها ثم خرجا منها إلى البصرة ليشننا
الغارة عليه

والواقع أن الإمام قد استراب بما نوياء حين سألاه الإذن بالسفر إلى
مكة . فقال لهما : « ما العمرة تريدان وإنما تريدان الغدرة ! »

ولكنه لم يحبسهما لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من
المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر ،
وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن
يتسللوا حيث شاءوا ، ولو أنه حبسهم جميعاً لما نسى له ذلك بغير
سلطان قاهر ، وهو في بداية حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان ،
وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم
قبل أن تثبت له البينة بوزرهم . وما أكثر المتحرجين في عسكر الإمام
من حبس الأبرياء بغير برهان ؟ ! لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم
عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن
يعلموا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيقلبوه ويشككوا بعض
أنصاره في عدله وحسن مجاملته لمن حاسنوه ولم يصارحوه بعداء

وعلى هذا كله لم يكن الجيش الذي خرج من مكة إلى البصرة
بيئاً من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير . فقد كانت

« العثمانية » في مكة حزباً موفور العدد والمال . فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق ولا يسعدنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها الإمام وخرج منها غالباً على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما لو بقي معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر فهي غلطة من غلطات الإمام يقل الخلاف فيها

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كفواً لمعاوية وعمر بن العاص في الدهاء والمداورة ، فعزله الإمام لأنه شك فيه ، وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره

وكان أصحاب على يحرضونه على عزله وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه . فعزله وهو غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى مصر من دولة على في الحجاز

ولما بايع المصريون علياً على يديه بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يشورون ، وقالوا له : أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر ، فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على الإمام فكتب إليه كلاماً لا إلى الرفض ولا إلى القبول ، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مرواغاً لمعاوية أو يحسبه مترقباً لساعة الفصل بين الخصمين . إذ كان ختام كتابه إليه : « ... أما متابعتك فأنظر فيها ، وليس هذا مما يسرع إليه ، وأنا كافٌ عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه ، حتى نرى وتري »

ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك أني مالى عليك مصر خيلاً ورجلاً ، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد والسلام »

وأراد الإمام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية فأمر قيساً أن يحارب المتخلفين عن البيعة ، فلم يفعل وكتب إليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معزلون والرأي تركهم »

فتعاضم شك الإمام وأصحابه وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى المدينة ، فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك أنه أشار بالرأي الصواب وأن ترك المتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من

التعجيل بحر بهم ، لأنهم هزموا محمد بن أبي بكر والى مصر الجديد ،
وجرت أوا عليه من كان يصانعه ويواليه

غلطة لا ريب فيها

وإن كان جائزاً مع هذا ألا يهزموا قيساً ، لو كان حاربهم ، كما
هزموا خلفه الذى لا يعدله فى الحزم والخبرة

ولكننا نبالغ على كل حال إذا علقنا بها الجرائر التى أصابت
الإمام من بعدها ، وزعمنا أنه تقاعد عن إصلاحها فى حينها ، كما تصلح
الغلطات التى يساق إليها الساسة ، فإنما هى غلطة من تلكم الغلطات التى
تضير والحوادث مولية وقلماً تضير أو تعز على الإصلاح والحوادث
مؤاتية . وقد عرف الإمام خطأه فقال صحبه : « إن مصر لا يصلح لها
إلا أحد رجلين : هذا الذى عزلناه والأشتر » وأنفذ الأشتر إلى مصر
ليعيدها إلى طاعته فمات فى الطريق !

والأقوال فى موت الأشتر هذه الميعة الباغثة كثيرة ، منها أنه مات
غيلة وأن معاوية أغرى به من دس له السم فى عسل شربه وهو على
حدود مصر فقضى نحبه ، وروى أن معاوية قال حين بلغه موته : « إن
لله جنوداً من العسل »

فإن صحت الرواية واعتقد من اعتقد أنها من دلائل السياسة القوية
عند معاوية فيما لا شك فيه أن موت الأشتر لم يكن من دلائل السياسة
الضعيفة عند الإمام . وأنه لا لوم على سياسته فى اغتياله ، إن كان فيه

سبب ثناء على سياسة الغيلة ، عند من يحمونها
ومن عجائب هذه القصة أن معاوية ندم على تقريب قيس من
جوار على وقال « لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون على من قيس »
لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامة أموره ، ولا ينحصر
نفعه له في سياسة مصر وحدها

ولكن الذى حذره معاوية لم يكن ، والذى حذره على كان
وإذا ولت الحوادث فقد ينفع الخطأ وقد يضر الصواب

ثم تأتى مسألة القصاص من قتلة عثمان التى كانت أطول المسائل
جدلا بين الإمام وخصومه فإذا هى أقصرها جدلا مع براءة المقصد من
الهوى وخلوص الرغبة فى الحقيقة

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع أن القود لا يكون إلا من ولى
الأمر المعترف له بإقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من
القبائل أو الأفراد

وأعتنوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا استطاع قبل أن تثوب
السكينة إلى عاصمة الدولة ، وأغفوا أنفسهم منه — وهم ولاية الدم كما
يقولون — يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة إلى
جميع الأمصار

وقد تحدث الإمام مرة في أمر القود من قتلة عثمان فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم « كلهم قتلة عثمان » .. فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين

وكان الإمام يقول لمن طلبوا منه إقامة الحدود : « إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكنني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون ؟ .. »

ومن قوله لهم : « .. إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن هؤلاء القوم مادة ، وإن الناس من هذا الأمر الذي تطلبون على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لاترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق ، فاهدأوا عني ، وانظروا ماذا يأتاكم ثم عودوا »

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له والقصاص من العادين عليه لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا . يؤيدون ولي الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف

إلا أنهم طلبوا ما لا يجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه ، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضي الله عنها . وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت ببيعة علي وهي خارجة من مكة : « ليت هذه

انطبقت على هذه إن ثم الأمر لعل « تشير إلى السماء والأرض ... ثم عادت إلى مكة وهي تقول : « قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه » فقيل لها : ولم ؟ والله إن أول من أثار الناس عليه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا « نعثلا » فقد كفر !

فقلت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا : وقولي اليوم خير من قولي الأولى »

وناهيك بالسيدة عائشة في فضلها ومكاتها وتقواها ، فقل ماشئت في المطالبين غيرها بهذا المطلب الذي لا يجاب والبرضى ، أو الارضاء ، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم فيخيل إلينا من عجبتهم إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط في لومه لو أنه رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه

ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب ووشك القتال في عسكرهم خلافا بين من يقبلونه ويرتضونه

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفا وثمانين فرعة للقتال لشكهم في وجوبه وذهاب بعضهم إلى تحريره

وبعد أن توعدوه بقتلة كقتلة عثمان وأحاطوا به يلحون عليه في

استدعاء الأشر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستجسداً في ساحة الحرب على أمل في النصر القريب

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطأوه في قبول أبي موسى الأشعري على علمه بضعفه وتردده ينسون أن أبا موسى كان مفروضاً عليه كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة ، وينسون ما هو أهم من ذلك وهو أن العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشر أو عبد الله بن عباس . فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً في الخلافة ، وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منها لصاحبه ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه . وإن توهم بعضهم أن الأشر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه والجنوح به إلى حزب الإمام بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم وحوله المؤيدون والمتربصون للمطامع واللبنات يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه إخفاقه ، وما أسهل الخرج الشرعي الذي يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين ! لقد كان النبي عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر أنه « تقتله الفئة الباغية » فلما قتله جند معاوية وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغي بشهادة الحديث الشريف قال قائل منهم : إنما قتله من جاء به إلى الحرب فشاع بينهم هذا التفسير العجيب وقبلوه جميعاً غير مستثنى منهم رجل

واحد . أفلا يقبلون تفسيراً مثله إذا تحول ابن العاص وأفتى الحكمان
بمخلم معاوية ومبايعة الإمام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذي
أذعن له الإمام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له
وهو يسوى بينه وبين غيره في عقباه

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية وهو خطة ترد على الخاطر حيال
هذه المعضلات التي واجهها الإمام ولم يكن عسيراً عليه أن يتوقعها بعد
مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها ، وشيوعهما قبل
ذلك بين جنده الذي يعول عليه

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل ، ولا ترتبط بها
تجربة ولا فشل ، وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للإمام
وأمن لسربه وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه . على ما في طلب
السلامة بين هذه الزعازع من أثره قلما يرتضيها الشجاع الباسل
أو الحكيم العامل .

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلاً كهلى بن أبي طالب
يترك وادعاً في سربه بين هذه الزعازع التي تحيط بالدولة الإسلامية
في عصره .

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم لم يتركه أصحاب السلطان ولم
يعفوه من الدسيسة والإيذاء ، لا اعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر

الدائم ، وأنه ما عاش فهو علم منصوب بىء إليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسموماً فى عهد معاوية خوفاً من لىاذ الناس به ورجعتهم إليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد . وما أعظم البون فى المكانة والحساب بينهما وبين الإمام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال !

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى إذا رجعنا إلى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة وفيما يقال عن مزىة كل منهم على خصمه أو مزىة خصمه عليه

فعلى" يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء فيقول : « . . . والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . . »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع »

ويعلل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم : « . . لم تكن بيعتكم إياى فلتة ، وليس أمرى وأمركم واحداً . إني أريدكم لله ، وأنتم تريدونى لأنفسكم » .

ومعاوية يذكر الحصال التى أعين بها على على" فيقول إنه « كان رجلاً لا يكتم سراً وكنت كئوماً نسرى ، وكان يسعى حتى يفاجئته الأمر مفاجأة وكنت أبادر إلى ذلك ، وكان فى أخبث جند وأشدهم

خلافًا . وكنت أحب إلى قریش منه ، فنت ما شئت . . . »

وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاشي في طلب الخلافة : « إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر » وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها إلا أنها تظل ناقصة ما لم تقرنها بحقيقة أخرى ، وهي أن هزيمة معاوية كانت مرجحة — بل مؤكدة — لو أنه وضع في موضع على وابتلى بالأسباب التي ابتلى بها .

فالبلاء كله إنما كان في خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر على يعرف وسر معاوية يكتم . لأن معاوية يطاع ونيته في صدره وعلياً لا يطاع إلا إذا سئل عن نيته وما يحل منها أو يحرم في رأى أتباعه . وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى ولا ينفذ من رويته إلا الذي ينساق إليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازية ، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جنداً مطيعاً بجند عصاة لما طمع في حظ أوفق من حظ على في ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين ، ولو استعان بكل ما أعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق في الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الإمام : « إن لبنى أمية

مروداً يجرون فيه ، ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبيتهم»
على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون في تعليل النصر والهزيمة
ولا نعدوه إلى ما وراءه . فليس من قصدنا أن نصف علياً بقوة الدهاء
وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأي وضعف التدبير ،
لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذي لا دليل عليه
فقوام الفصل بين الطرفين أنه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز
رأى ولا قوة دهاء ، ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبية فيه اظهرت على
صورة من الصور وإن قامت الحوادث عائقاً بينها وبين النجاح . فإن
الدهاء لا يخفيه أن تكون العضلة التي يعالجها محتومة الفشل
مقرونة بالخذلان .

ومما لا شك فيه أن علياً أشار بالرأى في مواقف كثيرة فأصاب
المشورة ، وأنه وصف أناساً فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من
الطباع والخصال ، وأنه أخذ بالحزم في توقع الحوادث واستطلاع الأمور
ولكنه لم الكفاية في ذلك ولم يتجاوزها إلى الأمد الذي يسلكه بين
الدهاة الموسومين بفرط الدهاء .

فمن مشوراته الصائبة أنه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب
الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك
فتلقهم فتتكب لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم . . ليس
بعدك مرجع يرجعون إليه ، فابعث إليهم رجلاً مجرباً . . . فإن أظهر الله

فذاك ما تحب وإن تكن الأخرى كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين»
ومن وصفه الرجال وأساليب تناولهم قوله لابن عباس وقد أرسله إلى
طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة فانك إن تلقه تلقه كالثور عاقصا
— أى لاويا — قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق
الزبير فإنه ألين عريكة فقل له : يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز
وأنكرتني بالعراق . فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه أنه كان يبت عيونه وجواسيسه في الشرق والغرب
ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وأنه كان إذا وجبت الحرب بادر
بالخروج ولم يأت التردد والابطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده .

ومن معرفته للجماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال إنهم أتباع
كل ناعق ، وإنهم « هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا » ..
لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنهم فانتفع بهم الناس .

فهذا قسط من الرأي الصائب كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الامام
للخلافة والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في
دور تأسيسها وتلقيق أجزائها

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم في الدولة الدنيوية لو تولاهها بعد
استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها ، كما جاء عمر بن العزيز في
صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بني أمية .

ولكنه قسط من رأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين
يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء

ونعود بعد هذا فنقول إنه لم يخسر كثيراً بما فاتته من الدهاء ، ولم
يكن ليربح كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب .

لأنه لا بد من ملك أو خلافة

ولن يكون ملكاً بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن
تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلاً يريد العصر والعصر يريد ، لأنه عصر
ملك تهيأت له الدواعى الاجتماعية ، وتهيأت له الرجل بخلائقه ونياته
ومعاونة أمثاله .

ولم يكن معاوية زاهداً فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان ،
ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه

فلما جاء عصر الملك طلب الملك والمالك يطلبه .

وقديما قال أبوه للعباس عم النبى وقد رأى جيش المسلمين فى فتح
مكة : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً »

فهو الملك ، أو هو جاه الدنيا ، الذى تطلع إليه من نشأته الأولى فى
بيته ، وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع فى موضعه وقام
به الموضع كما قام به ، ونجحاً معاً على التوافق والرفاء .

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة وجب أن يكون
على على رأس فريق الخلافة

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين في دوام المنفعة ، وبين أصحاب المبادئ والظلمات الراغبين في التبديل والاصلاح ، وجب أن يكون على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق .

وحين وجب هذا وذاك وجوباً لا حياة فيه للمتحول ، ولا اختيار فيه للمختار ، وجب أن تصير خلافة على إلى ما صارت إليه ، كائناً ما كان خطره من الدهاء والخدعة ، وكائناً ما كان طريقه الذي ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه .

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك في صراع على ومعاوية أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع وقد ظهرت في مآزق شتى من أخرج مآزق التاريخ واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيراً في تأسيس الدول وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل ، وتريد بها عدة البطش العاجل والمباغلة الحاسمة كلما تأشبت العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع فقد علمنا مثلاً أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام في كل خطوة من خطوات النصر ويثقل عليه باللجاجة والعنت في مواقف مكربة تضيق بها الصدور .

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل كان له

شركاء من الخوارج وغير الخوارج يظهرون بالعنت في غير موضعه
ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا به من الضرر في معسكر الإمام
فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانهم
ألا يخطر على البال هنا أن ضربة من الضربات القاضية كانت
تنجع في هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو
الأحابيل السياسية ؟

ماذا لو أن الإمام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين وطاح برأس
الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد إلى نفسه ثم ولى على الفور من
يقوم مقامه في رآسة قوم ويكفل له الطاعة بينهم لأمره ؟ أكان بعيداً
أن تفعل الرهبة فعلها فيسكن الشاغب ويهب المتطاوّل ويجمع المتفرق
ويقل الخلاف بعد ذلك على الإمام وعلى الرؤساء عامة ؟
لم يكن ذلك بعيد

ولكنه كذلك لم يكن بالحقق ، ولا بالأمون
فهى مجازفة ذات حدين تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معاً ، وقد
يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد
الذى من قبل المضروب

وكل ما تفيدنا إياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق أن الإمام
رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التى اتصف بها بعض
أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهدين متدبرين

فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر
ولم يضرب بالسيف قط كأنه يقذف بالقذاح إما إلى الكسب وإما
إلى الخسارة ، وإنما كان يضرب به ضربة الجندي الذي يلتمس القلب
بقوته وقوة إيمانه ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب

على أننا — وقد سجلنا هذه الملاحظة — نفرض أنه رضى الله عنه
كان من أصحاب تلك الملكة التي عرف بها بعض المغامرين في أوقات
الفصل بين اليهود

ونفرض أنه عمد إليها فنفعته في عسكره وطوعت له الجند وأراحته
من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله
فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذي أجملناه؟ وكيف
يكون المخرج بين سياسة الملك كما يطلبها العصر وسياسة الخلافة كما
تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية؟

أيسوس الامام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة؟
أيفرق الأموال على رؤوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف أم
يلزمهم عيشة النسك والشطف والجهاد؟

وإذا حرمهم وتألّبوا عليه مع خصمه أفهو الغالب إذن بمطالب العصر
ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون؟

وإذا أعطاهم لبيدخوا بدخ الملك الدنيوي وهو وحده بينهم الناسك

المجتهد على سنة النبوة ، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو في جوهره متناقض لا يستقيم ؟

فالسياسة التي اتبعها الإمام هي السياسة التي كانت مقيّضة له مفتوحة بين يديه ، وهي السياسة التي لم يكن له محيد عنها ولم يكن له أمل في النجاح إن حاد عنها إلى غيرها ، سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذي رأيناه وسواء ، ولأن لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنة النبوة والخلافة النبوية

ومهما يكن من حكم الناقدين في سياسة الامام فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شيء لا سبيل إلى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهي منتهية لا محالة إلى ما انتهت إليه

ومن الجور الشديد أن يلقي عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد

وقد تجمعت له أعباء النقائص والمفارقات التي نشأت من قبله ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبي صلوات الله عليه

أحس بها الصديق فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بوادع الترف الذي استناموا إليه

وأحس بها الفاروق وأثقلت كاهله وهو الكاهل الضليع بأفدح

الأعباء ، فضايق ذرعاً بالحياة وطفق يقول في سنة وفاته : « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط . اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك »

وأحس بها عثمان فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين لا يرجع أحدهما إلا بالغلبة على نده وضده

وكتب لعل " بعد ذلك أن يتلقى الدولة الإسلامية بين هذين العسكرين ، فلا فى مقدوره أن يجمعهما إلى عسكر واحد ، ولا فى مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره ، وإنه لإنصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذى باء وحده بتلك النقائص والأعباء

وقد نُقِدت سياسة على " لفوات الخلافة منه قبل البيعة ، كما نُقِدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين أنه تأخر نيفاً وعشرين سنة فلم يخلف النبي ولم يخلف أبا بكر ولم يخلف عمر ، كأنه كان مستطيعاً أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهده وسمى من تديره ، فأعياه السعى والتدبير

ومقطع الفصل في هذا أن نرجع إلى العوائق التي حالت بينه وبين
الخلافة قبل وصولها إليه ، لنعلم منها العائق الذي كان في أيدي الحوادث
والعائق الذي كان في يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه

فما لا شك فيه أن الإمام أنكر إجحافاً أصابه في تخطيه بالبيعة إلى
غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وأنه كان يرى أن قرابته من
النبي مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ،
وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ، كما قال

ومما لا شك فيه أن شعوره هذا طبيعي في النفس الإنسانية كيفما
كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه - مع هذه المزية التي
ترشحه للبيعة - يشبه أن يكون قدحا في مزاياه الأخرى من علم
وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له
وممالة على الغرض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها
القدح فيها والخط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة .

إلا أن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ولا
يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى في سبيلها بالعظيم
والعظماء الكثيرين إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان على هي العائق الأول
في سائر الموازين ومنها ميزان النبي صلوات الله عليه

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبية في قريش وفي القبائل العربية عامة ، لعلهم يخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة وكرهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عنه عصبه هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين ، وقد رضى في سبيل هذا المقصد الحكيم أن يجعل بيت أبي سفيان صنواً للكعبة في أمان اللاجئين إليه ، وأصهر إلى أبي سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كتبيه ، وربما حسن لديه أن تؤول الخلافة إلى على بعده إذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على أن تكون خلافته إختياراً مرضياً كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأبى إثارة العصبية وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة في صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها تأبى هذا الذي أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما في وسعها إجتنابه . لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب ، وتقوم في أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق ، فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبتى الأساس على المساواة وأن يقام الحكم على هذا التفضيل وإن أحق الناس أن يفتن إلى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين

زعموا أن وراثة الخلافة في بني هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين

فلو أنها كانت حكماً من أحكام الله لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ، لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية

فلا النصوص الصريحة ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة ، أو حصر الخلافة في الأسرة الهاشمية

وهذا هو العائق الأول الذي حال بين علي وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : إن قريشاً اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة

ويرى بعض المؤرخين أن قريشاً كانت تحقد على الإمام وتمحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترب بهذه العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بني هاشم ، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم

عتبة بن ربيعة جد معاوية والوليد بن عتبة خاله وحظظة أخاه ،
وجميعهم من قتلاه في يوم بدر عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات
الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم في الإسلام ، وزادهم
حقداً عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلهم من الكفار . وكانت
حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد : « ... كأنها حاله لو
أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه ، من إظهار ما في النفوس
وهيجان ما في القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان
الذين لم يشهدوا وقائعهم وفتكاته في أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو
كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله »

وقد علم الإمام هذا من قريش عند ما يئس من مودتها وابتلى
بالصريح والدخيل من كيدها فقال : « ... مالي وقريش ؟ أما والله
لقد قتلهم كافرين ولأقتلهم مفتونين ... والله لأبقرن الباطل حتى
يظهر الحق من خاصرته . فقل لقريش فلتضج ضجيجها »

ولو أن قريشاً وادعته في سرها وجهرها ، ووقفت بينه وبين منافسيه
على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم إليها لقد كانت تلك عقبة
أى عقبة

فأما وهي تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها فتلك هي العقبة التي
لا يذلها إلا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبي صلوات الله

عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش في أرجاء الدولة الإسلامية بأسرها

ولقد سبق الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم أبو بكر وعمر وعثمان

فإذا نظرنا إلى عائق العصبية الذي قدمناه فلا نرى شيئاً أقرب إلى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم إلى ولاية الخلافة بعد النبي عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترشيح والترشيح

فليس أقرب إلى طبائع الأمور في بلاد عربية إسلامية من اتجاه الأنظار إلى مشيخة الإسلام في السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لاختيار الخليفة من بينها على السنة التي لم تتغير قط في تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الإسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين

ولم يكن الإمام عند وفاة النبي من مشيخة الصحابة التي تؤول إليها الرأسة بداهة بين ذوى الأسنان ممن مارسوا الشورى والزعامة في حياته عليه السلام ، لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل ، وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهوره على الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقيير والولاء.

والعائق الذى قام بين علي وبين الخلافة هو فى طريق هؤلاء
الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب

ونعنى به عائق العصبية الهاشمية

لأن قريشاً لا تنفس على بنى تيم ولا بنى عدى ولا بنى أمية فى
رئاسة عثمان خاصة ، كما تنفس على بنى هاشم إذ تجتمع لهم النبوة والخلافة
والإمام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بشاقب نظره حين قال وقد
تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت القاروق : « إن الناس ينظرون
إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : إن ولى عليكم بنو هاشم
لم تخرج منهم أبداً . وما كانت فى غيرها من قريش تداولتموها بينكم »
وإذا اجتمع هذا العائق إلى عائق السن والتوقيير المشيخة المقدمة
فهما مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه

نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت القاروق وبلغ الإمام
الخامسة والأربعين وسبقت له فى المشورة سوابق ماثورات ، فأصبح
الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفي
مظنة الضعف والتواكل ، ولكن الذى كسبه بهذه المزية خسرته
بازدياد المطامع الدنيوية ويأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه ،
واعتقاد الطامعين أنهم أقرب إلى بعض الأمل فى لين عثمان وتقدم سنه
منهم إلى أمل من الآمال فى شدة الإمام وعسر حسابه

و بقيت الجفوة بينه و بين قريش على حالها لم يكفكف منها تقادم
العهد كما قال ابن أبي الحديد

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها دخلت في الأمر دخلة البواعث
الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بني الإنسان في زمن من
الأزمان . فقد اجتمع رهط الشورى الذين نذبهم الفاروق لاختيار
الخليفة من بعده . فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من
الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم و يعلن البيعة على عهدتهم .
وقيل إنه أنس من الزبير وسعد بن أبي وقاص ميلاً موقوتاً إلى على
وانحرافاً موقوتاً عن عثمان ، فسارع إلى المنبر وبايع عثمان وجاراه
الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرأ لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمه
أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

و يقضى الحق أن يقال في هذا المقام أن بيعة عثمان قد تمت باتفاق
بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف
هي التي خذلت علياً وقدمت عثمان عليه ، إذ لو كانت هناك مغالبة
شديدة بين حزينين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من
عبد الرحمن بن عوف وهو واحد من خمسة أو ستة إذا أشركنا معهم
عبد الله بن عمر بن الخطاب

ثم بويع الإمام بعد مقتل عثمان فهل تحولت قريش عن جفوتها
أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟
كلا !

بل جاءت البيعة في المدينة يوم خفت فيها صوت قريش وهبطت سمعة
حكامها ، ويوم أصبحت البيعة ثورة على قريش تنكر عليها الأثرة
بالمملك والأثرة بالغنائم والأمصار ، ويوم انقسم المجتمع الاسلامي قسميه
الذين التبسا وتداخلا حيناً حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم في
خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة إلى الخلافة والآداب النبوية وقسم
يريد المضي في الملك والدولة الدنيوية

فأى القسمين كان قسم على كائناً ما كان سعيه واجتهاده ؟ وأى
سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبي إلى
ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محميد
وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تديره فهو على هذا الملتقى
الذي يتلاحق عنده الاسراع والإبطاء

وعلى هذا ينبغي أن نرجع إلى علة غير سياسة على لتعليل العوائق
التي قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان
فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التي نظرت بها قريش إلى
السيادة الهاشمية

وهو غير مسئول عن سنه التي تأخرت به عن مشيخة الصحابة من
ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والأصالة بين ذوى الأسنان والأخطار
وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الإسلام على
أسرة واحدة فى العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوجس والإحجام منذ
اللاحظة الأولى

نعم قد يسأل الإمام عن علاقته بالناس وقدرته على تأليفهم بالآمال
والمجاملات ، ليأنسوا إليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ،
ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا فى بره واطمئنناً إلى حفاوته ووده
وقد يرد على بعض الخواطر أن سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة
الإرضاء بالمنافع والوعود كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدينية
وأخلق بتمكينه أولاً وآخرأ بين قريش وقبائل العرب عامة

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله ويسأل عنه كما يسأل
الإنسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره ، ولا يجوز أن نرجع به إلى
حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التى لا قبل له بتبديلها
ولكن الواقع أن هذه السياسة — سياسة المنافع الدنيوية — لم تكن

لتجديده شيئاً بعد وفاة النبى ولا بعد مقتل عثمان
فبعد النبى عليه السلام لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت فى
الأيدي وأنشأت فى المجتمع الإسلامى طبقة مسموعة الصوت تحرص
عليها وتستزيدها

فالذى يناضل فى سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع إنما كان يناضل
بسلاح غير موجود . بل كان يناضل سلاحاً ماضياً ينهزم أمامه لا محالة
وهو سلاح الحماسة الدينية التى غلبت فى ضرباتها الأولى كل سلاح
أما بعد مقتل عثمان فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية
فى سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب لها أهبتة قبل عشرين
سنة . وجمع لها أنصاره وكنزها كمنوزة فى بلاد وادعة بين جند مطيع
ولو توافرت لعلى مادة هذه السياسة لما توافر له أعوانها والمساعدون
عليها . فليس أقل نفعاً فى هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة
المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو
غير قاصدين ، فلا يديرون أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه
وأغلب الظن أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبهوه
ولا يرجح بها أولئك الذين أبغضوه

فقد حبيبته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم
ولا مطمع لها فيه . فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم فقد كانت
من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر
وفارس والعراق ، ونشأت فى اليمن — وقد عهدت حكمه قديماً — تلك
الطائفة السبائية التى غلت فى حبه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس ،
وانتشرت فى مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التى
ظلت كامنة فى تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال ، وشذت الشام

لأنها كانت في يد معاوية ، وشذت أطراف من العراق أول الأمر
لأنها كانت في يد طلحة والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من
البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها ، فلولا أن سواد الناس
لا يعملون بغير عصبية من القادة ، وأن العصب من القادة كانوا كلما
وجدوا في بقعة من البقاع وجد معهم النفع والاستغلال ، لقد كانت
محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين

فأغلب الظن كما أسلفنا أن علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة
الدنيوية ولا يكسب العصب التي ناصبته العداء وأيقنت أنه حائل
بينها وبين ما طمحت إليه من الصولة والثراء

وهذا على تقدير المقدرين أن علياً يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ،
وأنه لو اتبعها لكانت أجدى عليه

ولست هي أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها بملوم

وتفصى بنا هذه التقديرات جميعاً إلى نتيجة واضحة نلخصها في
كلمات وجيزة ، ونعتقد أنها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي
كثرت فيها مطارح النقد والدفاع

فسياسة علي لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع
سياسة أخرى

وهي كذلك لم تبلغه مأرب مستعصية كان يعز عليه بلوغها في موضعه الذي وضع فيه ومجراه الذي جرى عليه

فليست هي علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يخلق ولا تستدعي النجاح من حيث لم يسلس له قياد

ورأينا في سياسته فهماً وعلماً ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التي هي إلى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء

فكان نعم الخليفة لو ضادف أوان الخلافة

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغنائه عن المساومة والإسفاف .

ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في أوان ملك موطن ، فحمل أعباء النقيضين ، وأخفق حيث ينبغي أن يخفق أو حيث يعيبه أن ينجح وتلك آية الشهيد

obeykhanh.com

کتابخانه

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين علي ومعاوية . ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها ، وتتلخص عوامل الأمان في وقاءين اثنين أحدهما أن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح إليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حكمه وهو باق على اعتقاده

وثانيهما أن أعداء الإسلام كانوا في شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحرق بهم من المخاوف ، وربما صح في الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهي أنها لن تكون شراً محضاً في جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها . فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الإسلام بالانتظار وأوقعت في روعهم أنهم غنيون عن التحفز والثوب الذي يشق عليهم جهده وهم في تلك

الحالة من الجهد والإعياء . فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والأناة ، وألهمى القوم عنه ببعض الأتاوات والنوافل فتراجعوا متربصين إلى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه وهم وادعون مكفيون شر القتال . فكان هذا الانتظار الخادع جانباً من جوانب الخير في الفتة الإسلامية التي فاضت يومئذ بالشروع

وعلى هذا انقضت أيام على وليس للحكومة الإسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح أو سياسة الدفاع أو سياسة المفاوضة والاستطلاع

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة على فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث

ومن اليسير أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه بغير حاجة إلى الإطالة في التعريف وسرد الأمثال

لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية

فنحن نتخذ ماشئنا من طريقين متقابلين فإذا طريق على هي طريق الخلافة المنزهة حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو

والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام ، فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل في المطامع إسرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابتعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدودهم لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاته : « وليكن أبعد رعيته منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس فإن في الناس عيوباً والى أحق من سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك »

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس فقال في وصيته لمحمد بن أبي بكر : « لاتدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله إن شر وزراءك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له

مثل آرائهم ونفادهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم «
ولم ينكر قط شيئاً من سياسة التولية ثم صنع مثله في عهده ، على
كثرة الإغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة قليلاً مع الأقرباء
وذوى الأخطار

ومن زعم غير ذلك من ناقديه في عصره أو بعد عصره فإنما هو آخذ
في المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات
إذ كان مما قيل مثلاً أن علياً أقام عبد الله بن عباس على البصرة
وعبيد الله بن العباس على اليمن ومحمد بن أبي بكر ابن زوجته على مصر .
هم أقرب باؤه وخاصة أهله ، فهو إذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان
من إثارة الأقرباء بالولايات وإقصاء الآخرين عنها
ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ،
لأن المقارنة الصحيحة بين العاملين تسفر عن فارق بعيد كالفارق بين
النقيض والنقيض

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير حكومة الإمام ، ولم
يكن للإمام معتمد على غيرهم بعد أن حاربتهم قريش وشاعت الفرقة
والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ولم يؤثروا بالذى خصهم منها
ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه ، بل كانوا يحاسبون على
ما في أيديهم أعسر حساب ، وكانوا لتضييقه عليهم في المراقبة يتركون

ولاياتهم ويستقبلون منها كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة وقد بلغ من حسابه للولاة أنه كان يحاسبهم على حضور الولاة التي لا يجمل بهم حضورها . فكتب إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة : « أما بعد يا بن حنيف ، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوء وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ما تقضيه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه » .

واستكثر على شريح قاضيه أن يبني داراً بثمانين ديناراً ، وهو يرزق خمسمائة درهم ! وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرجا في الدين

فلو أن الإمام اختص أقرباءه بالولايات التي يحاسبون عليها هذا الحساب لما كان في اختصاصه إياهم مستبيح حق ولا مستبيح مال ، فكيف وهو لا يختصهم إلا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله مندوحة عنهم أو يختصهم وهم دون غيرهم في القدرة والأمانة !

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما يوحى إلى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك

وقد انقسمت طريق الخلافة وطريق الدولة الدنيوية في كل أمر

من الأمور على عهد الامام ، ولم تنقسم في مسألة الولاية أو مسألة الاستغلال وكفى

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين في عهده قيام الفكرة العالمية إلى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية تشد أزرها بالاخاء بين الشعوب و بطلان الفوارق بين الأجناس وقد كانت القبيلة من أنصار الامام تقاتل القبيلة من أنصار معاوية في سبيل الرأي والعقيدة

وكان أنصار الإمام أبداً من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل العرب جميعاً على التعميم

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة على أو خلافته هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة ، فاذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذلك أي كانت السياسة المتوخاة وبالغاً ما بلغ نصيبها من السداد والصواب

ولنا أن نعم هذا الحكم الإنساني في كل شأن من شؤون الحكومة قضى به على في عهده أو عهود الخلفاء من قبله

فالروح الإنساني هو قوام الحكومة الإمامية كما ينبغي أن يكون ،

وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية ، وهي طاقة لها ما لها من حدود

حي . إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه في حملها ، فاستفتى الإمام فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : إن كان لك سلطان عليها فلا سلطان لك على ما في بطنها

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين بإقامة الحد عليها . وسأله عمر فقال : أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ وعن الصغير حتى يكبر وعن المبتلى حتى يعقل ؟ قال : بلى ! قال : فهذه مبتلاة بنى فلان . فعله أتاها وهو بها ، قال عمر : لا أدري . قال : وأنا لا أدري . فترك رجما للشك في عقلها وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش فمرت على راع فاستسقته فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها . ففعلت . فشاور الناس في رجما ، فقال على : هذه مضطرة إلى ذلك . فخل سبيلها

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصص وتفسير الشريعة ، إلا أنه قد حاد عن هذه السنة في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو إحراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الإلهية وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل إنهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون ، فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو الإله المعبود . إذ لا يعذب بالنار إلا الله

الإمام والمُتَّبِعُ وَالصَّحَابَةُ

أحاديث النبي عليه السلام في فضل علي ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة ، منها ما انفرد به وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة وهو متكئ على قوس عربية ، وفي الخيمة على وفاطمة والحسن والحسين . فقال : معشر المسلمين ! أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة حرب لمن حاربهم ، ولي لمن والاهم ، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء الولادة »

ومنها ما اشترك فيه وغيره وهو الذي روته السيدة عائشة حيث سئلت : « أي الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقالت : فاطمة ! فقيل : من الرجال ؟ قالت زوجها . إن كان ما علمت صواما قواما »

وقد روى حديث في هذا المعنى حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه فقال : من النساء عائشة ومن الرجال أبوها

ولا تناقض بين الحديثين ، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروى

الحديث الأول وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروى عن أقرباء النبي من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل علي ومحبته ومنزلته عند الله ونبيه ، وهي تعد بالعشرات

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث وفي أسانيدھا ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للإمام أو التشيع عليه ، وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا أن ننصرف فيه فريقاً على فريق ، أو نرجح مذهباً على مذهب . إذ ليس فهم الإمام موقوفاً على تغليب أى الفريقين وتعزيز أى المذهبين ، وفهم الإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعينه

فهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث فالذى يسمعك أن تجزم به من وراء اختلافهم أن علياً كان من أحب الناس إلى النبي ، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين . فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم إنساناً كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله فى الفراش ليلة الهجرة التى همّ المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه ، وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئاً فى سنه ؟

حب النبي لهذا الإنسان حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل الرواة ولا إلى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف

ومما لا خلاف فيه كذلك أنه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه إياه ، بل كان يسره ويرضيه أن يحبه إلى الناس ، وكان يسوءه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويحفوه

بعث رسول الله عليا في سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى منه سبية واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله . وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ثم انصرفوا إلى رحالهم . فقام أحد الأربعة فحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : ما تريدون من علي ؟ ما تريدون من علي ؟ ما تريدون من علي ؟ أنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدى . وقال لأحدهم في روايات أخرى : أتبغض عليا ؟ قال : نعم ! قال : لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التي اصطفاها . . لا تبغضه ، وإن كنت تحبه فازدد له حبا

وبعث رسول الله عليا إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم ، فأبى . فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم ،

وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد . فقال : يا رسول الله ، لقينا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق . . . ومضى يعدد ما لقيه ، حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه وهتف به يا سعد بن مالك بن الشهيد . بعض قولك لأخيك على ؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى فقام رسول الله فيهم ، خطيباً يقول لهم : « أيها الناس ؟ لا تشكوا عليا . فوالله إنه لجيش في ذات الله »

ويلوح لنا أن النبي عليه السلام كان يحب علياً ويحببه إلى الناس ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات ، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحباً لا أن يكون اختياره حقاً من حقوق العصبية الهاشمية ، فانه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ولم يحذر خطراً على الدين أشد من حذره أن يحسبه الناس سبيلاً إلى الملك والدولة في بني هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة لينفي هذه الظنة ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشئنة

فالتزم في التمهد لعل وسائل ملوحة لا تتعدى التدريب والكفالة إلى التقديم والوكالة : أرسله في سرية إلى فذك لغزو قبيلة بني سعد اليهودية ، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام ، وأرسله إلى منى ليقرا

على الناس سورة براءة و يبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك ، ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس ، وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم في شأنه إلى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من اللفة بينهم وبينه

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل وتنبئ عنها الحوادث بين النبي وابن عمه العظيم

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدها العلاقة الممكنة للأمانة ، وكل ما عداها فهو بعيد من الإمكان بعده من الأمان فهو يحبه ويمهد له وينظر إلى غده ويسره أن يحبه الناس كما أحبه وأن يحين الحين الذي يكون فيه أمورهم إليه

وكل ما عدا ذلك فليس بالممكن وليس بالمعقول ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة وليس بالممكن أن يحبهما له وينسى في سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة

وإذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع وإذا كان قد جهر به فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره : إنهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وإنهم إن أرادوه

لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وإنهم إن استطاعوه لا يخفى شأنه
ببرهان مبين ، ولو بعد حين

فكل أولئك ليس بالممكن وليس بالمعقول
وإنما الممكن والمعقول هو الذى كان ، وهو الحب والايثار ، والتمهيد
لأوانه ، حتى يقبله المسلمون ، ويتهيأ له الزمان

أما العلاقة بين على وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء فهى
علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يشوب إلى الصبر والتجمل والتقية
فليس فيما لدينا من الأخبار والملاحم ما يدل على ألفة حميمة بينه
وبين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على
عداوة وبغضاء . بل ليس فى أخباره جميعاً ما يدل على طبيعة تحقد على
الناس ، وإن دلت أحياناً على طبيعة يحقد الناس عليها ، ويفرطون

فمن المعلوم أن علياً كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقه ، وأنه
لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبى عليه السلام إلى الرفيق
الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصار فى أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات
الله عليه . قال : « ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة
برسول الله صلى الله عليه وسلم فلعجوا ^(١) عليهم . فان يكن الفلج به

(١) أى انتصروا عليهم

فالحق لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم »
كذلك كان رأيه في الخلافة يوم بويع بها الصديق ، ثم بويع بها
الفاروق ، ثم بويع بها عثمان

وجاءت قضية الإرث بعد قضية الخلافة في أوائل عهد الصديق
فباعدت الفرجة بين القلوب وأطالت العزلة بين الأصحاب ، وخلاصة
هذه القضية أن فاطمة والعباس رضى الله عنها طلبا ميراثهما في أرض
فدك وسهم خيبر فذكر لها الصديق حديث النبي عن إرث الأنبياء ،
ونصه في روايته « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث . ما تركناه فهو
صدقة . إنما يأكل آل محمد من هذا المال »

فغضبت فاطمة ولم تكلمه حتى ماتت ، ودفنها على ليلا ولم يؤذن بها
أبا بكر . وقيل أن علياً تخلف عن البيعة ستة أشهر إلى ما بعد وفاتها .
ثم أرسل إلى أبي بكر أن أثنتا ولا يأتنا معك أحد . وتلقاه وعنده
بنو هاشم فقال : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر انكار
لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكننا كنا نرى أن
لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا »

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره ترجع إلى سيرته
وأحاديثه فترى ولا ريب أنها أقل ما تشعربه النفس الانسانية في
هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر
فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله أو يتجاوز بها حد الحجة

التي تنهض بحقه . بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يجاوزه إلى جمحة
غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق
من لأمنيه

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة الكريم
بمسلكه ومقاله . ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .
ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رمى بها كما يأنف العزيز
الكريم . وفي ذلك يقول من خطاب إلى معاوية : « ذكرت إبطائي
عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ؟
وأما الكراهة لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال إن دلائل وفاته في حياتهم و بعد ذهابهم كانت أظهر
من دلائل إجفائه . فانه احتضن ابن أبى بكر محمداً أو كفله بالرعاية
ورشحه للولاية ، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ،
وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه : وهم أبو بكر
وعمر وعثمان

ويخطئ جداً من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلاً على كراهته
لعمر أو نعمة منه في أبنائه . فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان
فقتله انتقاماً لأبيه ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة
عليه . فلما استفتى في هذه القضية أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه
حين تغير رأى عثمان فأعفاه من جريمة عمله . لأنه هو الرأى الذى

استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه ، وبهذا الرأي دان قاتله
عبد الرحمن بن ملجم ، فأوصى وكرر الوصاة ألا يقتلوا أحداً غيره ، لمظنة
المشاركة بينه وبين رفقائه في التآمر عليه

وانك لن تجد إنسانا أعرف بالعهد ولا أصون له ممن يتذاكره في
حومة الحرب ويرى أن التذكير به ينزع السلاح من الأيدي ويعود
بالخصمين المتناجزين إلى الصفاء والإخاء

فما حارب على عدواً له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة
ويستنجد الصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة

ومن ذلك موقعة مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل وهما ملحان في
حربه وإنكار بيعته

نخرج حاسرا لا يحمى بدرع ولا سلاح ، ونادى : يا زبير ؟ أخرج
إلى . نخرج إليه شاكا في السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت :
واحرباه ؟ إذ كان خصم على مقضيا عليه بالموت كأننا ما كان حظه
من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل على والزبير اعتنقا ، وعاد على يسأله : ويحك يا زبير !
ما الذي أخرجك ؟

قال : دم عثمان

قال : قتل الله أولانا بدم عثمان !

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : والله
ستقاتله وأنت له ظالم

فاستغفر الزبير وقال : لو ذكرتها ما خرجت

ولما وقف على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب
عن وجهه وهو يقول : عزيز على أن أراك أبا محمد مجدلاً تحت نجوم
السماء ، وتمنى لو قبضة الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة

والمودة عند فارس كعلي عهد محفوظ وموثق مذكور ، إن فاتها أن
تكون حنان قلب أو ألفة شعور

ويخيل إلينا أنه لم يرزق قط صداقة الألفاء الذين يرعاهم ويرعونه
لأنه يحبهم ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنة العهود
وديدن الفروسية ، فلم تزل بينه وبينهم إيماءة إلى سلاح مغمد أو
سلاح مشهور

ومثل على لا يرزق صداقة الألفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التي تغرى
بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة

فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكي ، موصول النسب بأعرق الأرومات
فإن لم يحسد هذا فمن يحسد ؟

وإن حسد فما الذي يفل من غرب حاسديه ؟ وما الذي ينفع بهم
إلى القصد في عدائه والتأليب عليه ؟

إنهم يستبعدون يومه في الإمارة والسلطان ، وإذا استقربوا يومه في الإمارة والسلطان فلا مطمع لهم في النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق ، فنصيبه إذن منهم نصيب المحسود الذي لا رجاء له في هوادة من حاسديه ، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم يطمعوا في نفعه ولم يزالوا على طمع في النفع من خصومه ، و بليته بهم أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان ولا يعمد معهم إلى الختل والروغان . . . وعلى أنه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التي لا تحميها حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم العربي « إن نسي أنه أسد لم ينسوا أنهم كلاب »

وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها وبين آلهة وأنصارها
فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الألفة
والعلاقة بينه وبين الخصوم كانت علاقة حسد غير مكفوف ،
وبغض غير مكتوم
والعلاقة بينه وبين سواد العامة كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون إلى لبابه ، وإن قاربه أناس معجبين ، وباعده أناس نافرين
وتلك أيضاً آية الشهيد

obeykhanad.com

فقر

السنة الخلق أقلام الحق

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت ، وهي صدق في كثير من الأحيان

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التي ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل إلينا أنها خاطر عابر يُسمع ويستملح ويشفع له القدم : كرامة له كما نقبل السمين والغث أحيانا من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس ، ثم نعرضه اتفاقاً على العلم والقياس فاذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء ، وإذا بالخطأ في هذه القولة الشائعة أو في هذا اللقب المرتجل أقل من كل خطأ يحصى على كلام مخلوق

من هذه الألقاب الشائعة لقب الإمام الذي اختص به على بين جميع الخلفاء الراشدين ، والذي يطلق إذا أطلق فلا ينصرف إلى أحد غيره بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقه ولاحقه ولم وليس هو بفرد في الإمامة بجملة معانيها ؟

ألم يكن الصديق إماماً كعلي ؟ ألم يكن الفاروق إماماً كعلي ؟ ألم يكن عثمان إماماً كعلي ؟ ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟

بلى كانوا أئمة مثله وسبقوه في الإمامة

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها صفة ، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها . فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تذييل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس . وذلك هو علي بن أبي طالب كما لقبه الناس وجري لقبه على الألسنة فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة في الطرقات ، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها علي ولا يجاريه فيها إمام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام ، فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه . وندرت فرقة في الإسلام لم يكن على معلماً لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت

الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشرعة ، وعلماء الأدب والبلاغة .
فهو أستاذ هؤلاء جميعاً بالسند الموصول

أما الفرق التي جعلته موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها فحسبك أن تذكر
الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنة ، فتكون قد ذكرت
جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير
وهنا تشتبك الفروع وتتأشب الأفاين فترى الفرقة الواحدة مزيجاً
من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها ، وقد تتراعى بها
الفروع حتى تصل إلى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء ، وهم
طرف مقطوع أو موصول ، من بعض تلك الأصول
فالإمام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته ، وكثير
من معارض حياته ، وطوارىء أوقاته
وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات
فآية الشهداء أنهم يبغضون حقهم في الحياة ، ثم يعطون فوق
حقوقهم بعد المات

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في إقبالها وإدبارها كما قال الإمام
رضي الله عنه : أنها إذا أدبرت عن إنسان سلبته محاسن نفسه وإذا
أقبلت عليه أعارته محاسن غيره

وكذلك اتفق للامام في صفة الإمامة كما اتفق له في معظم الصفات
فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب
إليه ، وقل أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه إياه ، وقل أن توجه الثناء
بالعلم إلى أحدمن الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه

نحلوه ديواناً من الشعر فيه عشرات من القصائد وليس بينها إلا
عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه

ونحلوه علماً سموه علم «الجفر» وزعموا أنه علم النجوم والأزياج الذي
يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف
الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في
أيام العباسيين وما تلاها

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالاً لم تعرف ولا يعقل أن
تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق
وبعض ما نحلوه يزيد قدره ويرفع شأنه ألا تصح نسبته إليه .

وبعض ما بقي له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه — كاف لتعظيم
قدره وإثبات إمامته في عصره ، وبعد عصره

وعندنا أنه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان
نقد الشعراء نقد عليم بصير يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف
وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه

المقابلة بينهم أنه سئل من أشعر الشعراء ؟ قال : إن القوم لم يجروا في حلقة تعرف الغاية عند قصبتها . فإن كان ولا بد فالملك الضليل »

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب « المدارس » والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الإجابة في شعره ، والنبي عليه السلام يرى ذلك حيث سأله أن يأذن لعل في هجاء المشركين فقال : ليس بذاك . وأحاطهم إلى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب القوم

وكل شعره الذي رجحت نسبته إليه من قبيل هذه الأبيات التي وصف بها قبيلة همدان في وقعة صفين :

ولما رأيت الخيل تَرجم بالقنا	فوارسها حمر النحور دوام
وأعرض نقع في السماء كأنه	عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادي ابن هند في الكلاع وحمير	وكندة في لحم وحى جذام
تيممت همدان الذين هم هم	إذا ناب دهر جُنّتي وسهامي
فجاوبني من خيل حمدان عصبية	فوارس من لمدان غير لثام
نخاضوا لظاها واستطاروا شرارها	وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة	لقلت لمدان ادخلوا بسلام
أو من قبيل هذه الأبيات :	

محمد النبي أخى وصهرى وحزة سيد الشهداء عفى

خلاصة رأى الإمام فى المرأة أنها « شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها »

وكان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التى تليق بالرجل وتحمد منه . « نخباء خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعائها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شىء يعرض لها »

والإمام صاثر إلى رايه هذا فى المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذى ينظر إليها على سنة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذى ينظر إليها على سنة العبادة فى جميع العصور ، ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبهم قط عن فطرته الغالبة عليه وهى فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها ، فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية ، ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى

فنی دست

وجعفر الذى يمسى ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى منوط لهما بدى ولحى
وسبطا أحمد ولداه منها فأيكم له سهم كسهمى
سبقتكم إلى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فرداً فمن ذا يدعى يوماً كيومى
وقد نظم شعراً ولا ريب كما يدل سؤا لهم النبي عليه السلام أن
يأذن له فى هجاء من هجاهم ، ولم ينسب إليه شعر — صح أو لم يصح —
أجود مما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء ،
أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء .

أما كتاب الجفر أو علم الجفر فالقول الفصل فيه أقرب من القول
الفصل فى جميع ما نحلوه وأضافوا إليه . فمثل على فى تقواه وفضله
لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو مما يليق بورعه
ولا ذكائه ، وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب
بأمثال هذه للعلوم ، ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا
أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة
الزنج وغارات التتار وما إليها هى من مدخول الكلام عليه وما أضافه
النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير وطويل

ولا نجزم مثل هذا الجزم فى امر المقامات التى خلت من بعض
الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعاً كما يمنع استطلاع الغيب الفصل

من أزياج النجوم ، ولكننا نستبعد جداً أن تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن وحاجة النسبة هنا إلى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير .

وكذلك نستبعد أنه قال لكتابه ليظهر علمه بغريب اللغة : « ألصق روائفك بالحبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل حندورتيك إلى قيهلى حتى لا أنفى نفية إلا أودعتها بحماسة جليجلانك »

أى « ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك إلى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعيتها فى سواد قلبك » فإن الولع بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف فى صدر الإسلام ، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها إلا بعد استعجام العرب وندرة العارفين بفصيح العربية وغريبها على السواء

ومثل هذا ما نسبوه إليه حيث زعموا أنه قال : « ما تر بعلبت قط » أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء « وما تسبتسمكت قط » أى ما أكلت السمك يوم السبت « وما تسرولقبت قط » أى ما لبست السراويل قائماً . إلى أشباه هذه المخترعات التى تستغرب لفظاً ومعنى واعتقاداً من رجل كالإمام فى صدر الإسلام .

إلا أننا نسقطها جميعاً فلا نسيقط بها فضلاً ترجح به موازين الإمام فى حساب الثقافة .

بل نحسبها فضلاً — إن شئنا — ونسقطها فيبقى له بعدها السهم
الراجح في تلك الموازين

تبقى له الهداية الأولى في التوحيد الإسلامى والقضاء الإسلامى
والفقه الإسلامى وعلم النحو العربى وفن الكتابة العربية ، مما يجوز لنا
أن نسميه أساساً صالحاً لموسوعة المعارف الإسلامية في جميع العصور ،
أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول
من الاسلام .

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التى تسجل له في ثقافة الأمم عامة
كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور

ففي كتاب نهج البلاغة فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية
تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليف وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها إلى الإمام لغلبة الصيغة
الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك
من ترجمة الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولا سيما الكلام على الأضداد
والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات ؛ ولكن الذى يقرأه
الباحث ولا يشك في نسبته إلى الإمام أو في جواز نسبته إليه قسط
واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الإمام في مضمار علم الكلام . واعتراف
المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء

والمقولات ، وهو على جملة خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في كماله ، ومن أمثلته قوله « الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد عنها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان والاطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره غير ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون - أى ضارعون - لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبهرم ... »

أما القضاء والفقهاء فالمشهور عنه أنه كان أفضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقهاء والشرعية ، أو لم يكن بينهم من هو أفضى منه وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور ، وكان عمر ابن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة :

قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان في هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح

وفي اخباره ما يدل على عمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به أكبر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات المواريث، لأنه كان سريع الفطنة إلى حيلة التي كانت تعد في ذلك الزمن الغاراً تكبد في حلها العقول، فيقال إن امرأة جاءت إليه وشكت إليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد . فقال لها : لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثني عشر أخاً وأنت ؟ فكان كما قال

وسئل يوماً في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين . فأجاب من فورده : صار ثمنها تسعاً . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة

وفي هذه الإجابات دليل على الذكاء وسرعة البديهة فضلاً عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب

وإذا قيل في قضائه إنه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه صح أن يقال في علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر منهما في إنشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكاً إليه شيوع اللحن على السنة العرب فقال : له اكتب ما أملى عليك ، ثم أملاه أصولاً منها : أن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف . فالاسم ما أنبأ عن

المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . وأن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر . يعنى اسم الإشارة على قول بعض النحاة . ثم قال لأبى الأسود : انح هذا النحويأبأ الأسود . فعرف العلم باسم النحو من يومها وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية ولا سيما السريانية واليونانية ، ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا إلى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والقروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأم التى كانت تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوم وفيه مشابهة كبير لنحو اللغة العربية

وليس الإمام على أول من كتب الرسائل وألقى العظات وأطال الخطب على المنابر فى الأمة الإسلامية

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب . لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة منشئين ، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة

التعبير ، ولكن الإمام علياً تعلم الكتابة صغيراً ودرس الكلام البايع من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد ، فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع هو فيما نرى أول أساليب الإنشاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قذوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية . فديوانه الذى سُمى « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالة الأمانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف ، يوحى إليك حيثما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحداً غير الإمام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام

على أننا نبالغ ما نبالغ فى تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن فنون ثقافته العامة ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا ، بل توجب علينا ، أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لآئى كان من الناس فى مثل ذلك الزمان ؟

والسؤال لا بد منه ، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الإمام لم يخطر
هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه

ولكن لا بد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه
بعد ذلك

فالباعث عليه أننا نبالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات
المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة
التواتر والتلقين

لكن البداوة العربية لم تكن في الواقع معزولة عن ثقافة الأمم
المحيطة بها تلك العزلة التي تخطر لنا للوهلة الأولى
فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت المعارف
الإنسانية أشعتها التي تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور
وحسبنا من أمثلة ذلك مثال واحد في معسكر الإمام نفسه يغني
عن الأمثلة من قبيله

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودي
ابن زنجية مولود في بلاد اليمن ، ومذهبه الذي اشتهر به هو مذهب
الرجعة الذي يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود ،
وقول أهل الهند بظهور الإله الذي يتقمص جسم إنسان ، وقول
النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من
أقرباء الملوك والأمراء

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يبنى من أهل الجزيرة إذا تخيلنا أن الجزيرة في حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبني إسرائيل ، وأن الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، أو طريق المحاكاة الاجتماعية ، أو طريق الدراسة والسماع

وقد كانت عاصمة الإمام في الكوفة ، وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم بأسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناس كانوا ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء في سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر بعض هؤلاء الإمام أن يسير إلى حرب الخوارج في طالع كوكب من الكواكب المنحوسة فقال له : « أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء ؟ فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه »

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة قائلاً : « إياكم وتعلم النجوم ، إلا ما يهتدى به في بر أو بحر . فإنها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار ! »

وقد لبث علي بن أبي طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعاً أو يكاد

يتقطع عن جهاد الحكم والسياسة ، متفرغاً أو يكاد يتفرغ لفنون
البحث والدراسة ، يتأمل كل ما سمع ويراجع كل ما قرأ ويعرف كل
ما يعرف ممن يلقاه ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياها ، فهما يكن قسط
الثقافة العالمية قليلاً في بلاد الإسلام على تلك الأيام ، ففيه ولا ريب
الكفاية للعقل اليمتظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الإمام ،
وأن يثبت ما أثبتته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام

على أن هذه الفنون من الثقافة — أو جللتها — إنما تعظم بالقياس
إلى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها
فحصة الإمام من علم النحو — مثلاً — عظيمة لأن الابتداء بها
أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التي دونها النجاة بعد تقدم العلم
وتكاثر الناظرين فيه

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله ، فلا يجوز
لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر وهي في ابتدائها أصعب جداً
منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها
أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن فإذا هو عظيم في جميع
هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فذلك هو فن
الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا آنفاً إنها تسجل له في ثقافة
الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور

فالكلم الجوامع التي رويت للإمام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة

وقد قال النبي عليه السلام : علماء أمتي كأَنْبياء بني إسرائيل
فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون عَلَى الإمام على في حكمته
التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء
فهى من طراز الحكم الماثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر
وهو سليمان بن داود

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير وأوفر نصيباً من ذوق الجمال
كقوله مثلاً : « نَفَسُ الْمَرْءِ خَطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ » أو قوله :
« مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطِ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ » . . . أو قوله :
« الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ » أو قوله : « الْحِلْمُ عَشِيرَةٌ » . . .
أو قوله : « مَنْ لَانَ عَوْدُهُ كَثَفَتْ أَغْصَانُهُ » أو قوله : « كُلُّ وَعَاءٍ
يَضِيقُ بِمَا جُمِعَ فِيهِ إِلَّا وَعَاءُ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ » إلى أشباه هذه التعبيرات
الحسان التي تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ،
أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة

وبعض أقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التي تلازم صاحب
الفن الأصيل فتلبس معانيه لباساً من خوالج نفسه وأحداث زمانه ،
كما قال : « صَوَابُ الرَّأْيِ بِالْذُّلِّ : يَقْبَلُ بِاقْبَالِهَا وَيَذْهَبُ بِذَهَابِهَا »
أو كما قال : « مَا أَكْثَرَ الْعِبْرَ وَأَقْلَ الْعِتْبَارِ » . . . أو كما قال :

« شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فإنه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظ عليه » . . . أو كما قال : « إذا هبت أمراً فقع فيه ، فإن شدة توقيه أعظم مما نخاف منه » . . . أو كما قال « لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع »

وله عدا هذه الحكم التى تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ إلى كل سامع يفطن لها كقوله : « كل معدود منقضى وكل متوقع آت » أو قوله : « إذا كثرت القدرة قلت الشهوة » .. أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » . . أو قوله : « من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » . . . أو قوله : « الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يوثسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله » ... أو قوله : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » أو قوله : « العاقل هو الذى يضع الشئ مواضعه » أو قوله : « الصبر صبران : صبر على ما تكره وصبر عما تحب » أو قوله : « من ملك استأثر » أو قوله : « الناس أعداء ما جهلوا » .. أو قوله « القرابة إلى المودة أحوج من المودة إلى القرابة »

وله فى المواقف المرتجلة كلمات هى أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة ، فلما خرج وخذ له بعض المهام التى تردد فيها أنصاره قالوا له

يشيرون إلى أعدائه : يا أمير المؤمنين نحن نكفيكمهم . فقال :
« ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم ؟ إن كانت الرعايا قبلي
لتشكو حيف رعاتها ، وإنني اليوم لأشكو حيف رعتي ، كأنتي المقود
وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة »

ورثي محمداً بن أبي بكر حين بلغه مقتله على أيدي أصحاب معاوية
فقال : « إن حزننا عليه قدر سرورهم به ، ألا إنهم نقصوا بغيضاً
ونقصنا حبيباً »

فكل نمط من أنماط كلامه شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرة الوعي
وقدرة التعبير ، فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علّموا الأسماء وأوتوا
الحكمة ، وفصل الخطاب

وقد أخطأ موير Muir المؤرخ الانجليزي حين قال إن علياً حكيم
كسليمان وهو مثله حكمته لغيره يعني أنه ينصح الناس ولا ينتفع
بالنصيحة . فإن موير أحجى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين
انتفاعه بنصحه . ولا شك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن
المنتصحين بما ينصح به الناس . أما أنه لم ينتفع بحكمته فالطبيب لا يقدر
في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه ، فقد يكون الاخفاق من
استعصاء الداء لا من صحة الدواء

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح قد نسب إلى قالة من الأوائل
غير الإمام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح
والمذحول من كلام الامام الذي جمعه الشريف الرضى في « نهج البلاغة »

وفرج من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة في التعريف بعقريّة الإمام . فحسبنا أن أسلوب الإمام معروف في بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وأن طابع هذا الأسلوب شائع في الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلقيق هنا أو كلمة ظاهرة الإقحام هناك ، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطئ أن نرى في هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً وتنقطع حيناً كالوحدة التي نراها بغير انقطاع في كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد ، وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا في تبيان ثقافة الإمام ، أو تذوق أسلوبه الذي لا تخطئ فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذي لا تكلف فيه

ولا يتم القول في ثقافة الإمام على رضى الله عنه ما لم نتممه بالقول في نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذي هو مضماره الأول ومناط شهرته التي تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة

فجملة ما يقال في هذا الصدد أن فن الإمام العسكري هو فن البطل المغوار الذي يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وأنه يعرف كيف يكون

المهجوم حيث يجب الهجوم وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت في عضده ، ومن حيله المشهورة في توهين عزم عدوه أنه أمر بعقر الجمل في الوقعة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذي يلتفون به ويثبتون بثبوتهم

وهذا كله فن البطل المغوار الذي يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ولم يرد لنا من أنباء الإمام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار

نعم إنه كان يقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب وطلية ومؤخرة وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على التخصيص .

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار ، كما يكون لكم ردءا ودونكم ردأ ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن ، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارمحتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة — أي محيطة بكم — ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة »

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل فإن الله جعله سكناً وقدره مقاماً لأظمناً » ومنها قوله للولاة : « إني سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب الله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى ، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذنباً إلى شبعه ، فنكلوا من تناول منهم شيئاً ظمناً عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم ... »
وهذه وما هو من قبيلها مناهج موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه إلى خطط التعبئة وقيادة الميدان

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج في وقعة صفين لم تكن الوقعة كلها إلا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة في أوقات متباعدة ، كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد في موقف المبارزة أو في غمار الصفوف

وخلاصته ذلك كله أن ثقافة الإمام هي ثقافة العلم المفرد والقيمة العالية بين الجماهير في كل مقام

وأنها هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه . لأنه بالبأس زاهد في الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله

فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحثه ونجواه

خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين حيث يقول ... « لا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات النوى والأنفس والعقول ، إن كذا النؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر — أى الحجر — أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده . . . »



وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية كما يظهر من غير حادث واحد ، ومن ذاك صبية السبي التى استولى عليها وبنى بها لساعتها وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه ، فرأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه إلى النبى عليه السلام من أجله ، وربما كان هذا سبب تحذيره منها فى الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها ، فكان يقول اسراياه وجيوشه إذا شيعها : « اعزبوا عن النساء ما استطعتم » ويوصى فى أمثال هذه المواطن باجتنابها

إلا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء ، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذى تبعثه المرأة بمغريات جنسها

كان جالسا فى أصحابه فمرت بهم امرأة جميلة فرماها القوم بأبصارهم فقال رضى الله عنه : إن أبصار هذه الفحول طوامح ، وإن ذلك سبب

هياجها ، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلا مس أهله ، فإنما هي امرأة كامرأة »



وعلى الجملة يمكن أن يقال إن آراء الإمام في المرأة هي خلاصة الحكمة القديمة كلها في شأن النساء

وهن شر لا بد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين من أبناء إسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الإسلام

لأنهم كانوا جميعاً يمزجونها بالشهوات التي تثيرها عامدة أو غير عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التي تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم منها . ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير إلا في الأزمنة الحديثة التي نظرت في استقلال التبعات على أساس « الحزية الشخصية » فحسبت المرأة بما تجنيه وأوشكت أن تبالغ في تبرئتها من جنایاتها

فمن السهو عن الحقيقة أن تتخذ آراء الأقدمين في المرأة دليلاً على نصيبهم من الغبطة أو السكينة في حياتهم البيتية . لأننا خلقاء أن نحسبهم جميعاً من الأشقياء المعذبين في بيوتهم ، وهو ما تأباه البداة وتأباه أبناء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات

وليس من اللازم في حياة الإمام خاصة أن يستمد آراءه في المرأة من حياته البيتية ، فقد كانت تجاربه في الحياة العامة مدداً لا ينفذ لهذه

الآراء التي شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج إلى تجربة
مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضى حياة الإمام والمرأة يد في القضاء
عليها ، فكانت حياته الغالية مهراً لقطام التي قال فيها ابن أبي مياس
المرادى :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من على وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم
والذي يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم
يألفها الأزواج في زمانه ، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة
الزوجية بين أمثاله

عاش مع فاطمة رضى الله عنها لا يقرن بها زوجة أخرى حتى ماتت
بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر . وهي رعاية لها ورعاية لمقام
أبيها لا شك فيها . فقد كان النبي عليه السلام كما جاء في الأثر يغار
لبناته غيرة شديدة ، وروى عنه أنه قال وهو على المنبر مرة : « إن
بنى هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب ،
فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد على بن أبي طالب
أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنها بضعة مني يربني ما رابها
ويؤذيني ما آذاها »

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبي بكر

إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها .
وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم
وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف في عددهم
المؤرخون ، ويؤخذ من إحصائهم في «الرياض النضرة» للمحب الطبري
أنه كان رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بقي منهم بعده كثيرون
وكان على ما يفهم من خلائقه ومن سيرته وأخباره أباً سمحاً
يستريح الأبناء إلى عطفه ويمجثرون على مساجلته الرأى في أخطر
ما ينوبه من الأحداث الجسام

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها
جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له : قد أمرتك فعصيتني فقتل
غداً بمصيبة لا ناصر لك . فسأله : وما الذى أمرتني فعصيتك ؟ قال :
أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل
ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل الأتباع حتى يأتيك وفود العرب
وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت . ثم أمرتك
حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطالحوا .

فإن كان الفساد كان على يدى غيرك ، فعصيتني في ذلك كله !
فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه وجعل يقول له : «أى بنى !
أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا

كما أحيط به ، وأما قولك لا تبائع حتى تأتي بيعة الأمصار فإن الأمر أمر
أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة
والزبير فإن ذلك كان وهنا على أهل الاسلام وأما قولك :
اجلس في بيتك فكيف لي بما قد لزمني ؟ ومن تريدني ؟ أتريد أن
أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال دباب دباب . ليست هنا حتى
يحل عرقوبها ثم تخرج . . وإذا لم أنظر فيما لزمني من الأمر ويعنيني
فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أي بني «

وهذه معاملة « أخوة » تستغرب في الأجيال الماضية التي كان
للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ،
ولا ينقضها أنه لطم الحسن يوما لأنه ظن به تقصيراً في الدفاع عن عثمان ،
فتلك سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها في
سائر الأحوال

وكان رضى الله عنه يزهييه أن يحيط به أبنائه في محافل الروع
ومشاهد الزخوف ، فيخرج إليهم وهم حافون به عن يمينه وشماله ، ومنهم
من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان
واشتهر بالعطف على صغارهم كما اشتهر بمودة كبارهم ، فكان أحب
شيء إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفلة ذكية
ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها إلى المسجد ويسره أن يسألها
أصحابه : من أخوالك ؟ فتجيب : وه . وه . محاكاة لعواء الكلاب

وكان يقول : « إن للوالد على الولد حقاً ، وإن للولد على الوالد حقاً ،
فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه ،
وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن »
ومن إحسان التسمية أنه هم بتسمية ابنه حرباً لأنه يرشحه للجهاد
وهو أشرف صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن
فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخويه الحسين والحسن . وأتم حق
أبنائه في إحسان أسمائهم فاختر لهم أسماء النبي وأسلافه من الخلفاء :
أبى بكر وعمر وعثمان

أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه فمعيشة الزهد والكفاف ،
وأوجز ما يقال فيها أنه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يأكل
الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته ، وأن يلبس الرداء الذى يرد
فيه ، وأن أحداً من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى
مات عنه وهو خليفة المسلمين

وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا
فكان بيته نقيض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه
وزواياه .

مورخہ محمد

من كلمات الإمام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث
يقول : يا دنيا غري غري . . غري غري !
وإنها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء

إنها لسان قدر ، وعنوان حياة

فقد خلق الإمام وفي كل خليفة من خلائقه الكبار اجترأ على
الدنيا على ضرب من ضروب الاجترأ

خلق شجاعاً بالغاً في الشجاعة ، وزاهداً بين الزهد ، ودارساً محباً
للحقيقة الدينية يتحراها حيث اهتدى إليها

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية
من ورائها

فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارىء من
الطوارئ كما عرف بالإقبال على الدنيا ؟

صام الناس قبله عن الدنيا ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذاويرها
هدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت الطبائع إلى مألوفها الذي
أشجرت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم
تعهد به الجزيرة العربية قط في تاريخها القديم

وأقبل الناس على الدنيا بل هروا إليها إلى الدنيا
وإذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها
يصد ماذا ؟

يصد الطوفان وهو مندفع من وراء السدود
يصد الطبيعة الإنسانية وهي منطلقة من عقال التقوى
يصد ما لا سبيل إلى صده بحال
فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريرته . فإن الإنسان قد يعيش
عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء
وقد لزمته آية الشهادة في كل قصة كتبت له وكل حركة سعى إليها
أوسعت إليه

فمن آيات الشهادة أنه يساق إلى الخلافة ولا حيلة له في اجتنابها
ومن آيات الشهادة أنه يساق إليها في ساعة الفصل بينها وبين الملك
وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان
ومن آيات الشهادة أنه يساق إليها ولا حيلة له في تحقيق أغراضها
ولا في الخروج من مأزقها

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا
حيلة له في تبديل أولئك الأنصار

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا وقد غرت حوله كل إنسان . . .
فهو شهيد شهيد شهيد

خرج إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة
مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام

وصورته الجملة لا تشق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صورة
المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ينبغى أن ينزل عن محنة
القدر التي لا يلغها غالب

وقد كان له رأى عالم وفطنة حكيم ومشورة مدبر ، ولكننا إذا قلنا
أنه أخفق في العمل لأنه لم يغلب القدر فذلك تكليف بما لا يطاق

وإنما نقول إنه أخفق في العمل ونمسك ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها
أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الإخفاق

وحقُّ لاشك فيه أنه أخفق حيث يشرفه إخفاقه ، وحيث يخفق
الآخرون لو نصبتهم الأقدار في مثل مكانه

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو إلى اليوم موضع الخلاف
عليها وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال في التاريخ

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب

إليه ذلك ولا رأى من الحكمة أن يطلبه إليه . قال له ابن عباس
ورسول الله في مرض الوفاة : « اذهب إلى رسول الله فسله فيمن يكون
هذا الأمر . فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا أمر به فأوصي
بنا » قال : « والله لئن سألتها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها
الناس أبداً . والله لا أسأله رسول الله أبداً »

وآمن الإمام بحكمة الرسول إيمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق
الدنيا حتى كان قد آمن بها إيمان تعلیم وتطبيق . فلما سأله : أنبايع
الحسن ! قال : « لا آمركم ولا أنهيكم » فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا
على الناس استخلافه ، لأنهم رأوا في موقفه منها مثل ما رآه في موقف
الحسن ابنه ، على حكم سواء

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام
لقد ولد كما علمنا في الكعبة ، وضرب كما علمنا في المسجد ... فأى
بداية ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية !

فهرس

الصفحة

٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	تقديم
٩	...	...	...	...	...	...	...	...	...	صفات الامام
٢٩	...	...	...	...	...	...	...	...	...	مفتاح شخصيته
٣٧	...	...	...	...	...	...	...	...	...	إسلامه
٤٧	...	...	...	...	...	...	...	...	...	عصر الامام
٦٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	البيعة
١٠٩	...	...	...	...	...	...	...	...	...	سياسته
١٤٩	...	...	...	...	...	...	...	...	...	حكومته
١٦١	...	...	...	...	...	...	...	...	...	الامام والنبى والصحابة
١٧٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	ثقافة الامام
١٩٥	...	...	...	...	...	...	...	...	...	فى بيته
٢٠٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	صورة مجملة